الضئيل صاحب غيه الحمام

الضئيل صاحب غية الخمام

قصص

أحمد سميرسعد

تصميم الغلاف :

رقم الإيداع :٢٠١٤/٢٠٢٧٦

I.S.B.N:٩٧٨-٩٧٧-٤٨٨-٣١٥-٦

دار اكتب للنشر والتوزيع



الإدارة : ١٠ ش عبد الهادي الطحان من ش الشيخ منصور، المرج الغربية، القاهرة.

المدير العام : يحيى هاشم

هاتف : ٠١١١٠٦٢٢١٠٣ - ٠١١٤٧٦٣٣٢٦٨

E – mail :daroktob١@yahoo.com

Facebook : دار اكتب للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى ، ٢٠١٤م

الضئيل صاحب غية الحمام

أحمد سمير سعد

قصص



دار اكتب للنشر والتوزيع

الضئيل صاحب غية الحمام

-١-

لاحظه الضابط الشاب واقفًا علي سطح أعلى البيوت، عصًا سمراء هزيلة أحرقتها الشمس، عينين جاحظتين.

يسأل عنه.

يخبرونه أنه صاحب غية الحمام، لا يغادر السطح أبدًا.

بالتأكيد رأى السرقة إذًا.

تصفعهم حقيقة معنى وجوده بالأعلى، مقدرته علي رؤية كل شيء. الرءوس الحاملة لوجوه شاحبة وأعين ذاهلة تهتز مؤيدة للضابط.

صاحب الغية وبصوت متقطع هامس أنكر رؤيته للسرقة. أمام الصوت الرخيم للضابط، النسر علي كتفه، الدبابير المتناثرة من حوله، الجدران الجرداء للقسم، الضوء الباهت، حركة الضابط العصبية، مطارداته لإنكاره الخافت بضرب قبضة يده في باطن يده الأخرى، انهار مدليًا بكل شيء.

ومضات الكشافات التي حملها اللصوص تسللت خلال الشبابيك المغلقة. تابع محاولتهم للهرب بعد تيقنهم من خلو الشارع.

-٢-

تسرع نحو الشباك، تغلقه. أقامت يدها حائلاً بينها وبين الضخم الذي يبغي اقتحامها. وجهه يداعبها، شفتاه تحاولان غمرها بالقبلات. تهمد حركته أمام برودها. عيناه تتساءلان. تولول وهي تلطم خديها.

بالتأكيد لمحه من فوق السطح عند دخوله لديها، بالتأكيد استطاع التقاط تردده عليها طوال الأشهر الماضية، لم يخبر رَجُلها لكنها لا تستطيع الاعتماد علي ذلك.

في إغلاقها للشباك حمايةٌ لهما، لكنه تغيير للعادة باعث علي الشك.

تلتصق بالحائط المقابل للشباك بعيدًا عن أي مجال للرؤية. الضخم يسحق طراوتها بجسده. شفتاه ملتحمتان بشفتيها. تنزعه عنها. تهمس في أذنه بدلال أن ذلك يكفي اليوم.

في المساء أطفأ زوجها الأنوار. غلّق الشباك لاعنًا الحر وقاطن السطح، ثم ضمها إلي صدره.

-٣-

يصرخ في رفاقه دافعًا إياهم بعيدًا عن الشباك.

- إيه مالك...... ؟!

- الراجل اللي علي السطح.......

أحدهم يقذف السيجارة المخروطية المنتفخة بين شفتيه. يشهق من خلالها في عمق. يمط شفتيه ثم يدفع بالدخان الذي مكث في صدره للحظات.

- تصدق فعلاً فيه حد علي السطح....واقف ساكن تمام زي الحمام اللي حواليه.... مش عارف ليه حاسس إن لو حد خبط جنبه هيطير زي الحمام.

- ويقع..... ويقع....... ويقع........

ينفجرون في الضحك

- مش وقت تهريج ده.

- وده جه منين علشان يقل حظنا.

- ده بيربي الحمام من زمان قوي.... من زمان ما اوعاش عليه.

- وإزاي ما خدناش بالنا منه قبل كده.....

- عمومًا مافيش أصلاً مشكلة.... أكيد شافنا قبل كده كثير وماعدش فارق.

- أقولك المرة الجاية ابقي اعزمه يقعد معانا..... ياتري ده شكله من قريب عامل ازاي؟...

- بقولكم إيه..... أبويا وأمي راجعين كمان شهرين ومش ناقصة مشاكل.....

إيه ده ؟!!!!..... أنت بتعمل إيه؟!!!! ..... حد يرمي عقب السيجارة كده في الشارع... الله يخرب بيتك.......

-٤-

أمام الدكان جلس المعلم. ترك لصبيه مهمة تأجيج فحم الشواء. يده أحاطت بليّ النارجيلة. شفتاه عانقتا مبسمها. نظراته حائرة جائلة في الأرض وفيما يحيط به ولا يعلو قامته. يتجنب النظر للأعلى حيث السطوح والحمام.

آخر الليل وبعدما يغلق المحل يعود إليه بحقيبةٍ ملأى. بداخله يفرغ ما حوته من كلاب ألقمها قطع اللحم المسموم. يسلخ عنها جلدها ويعدها لشواء الغد.

اللعين أعلى السطح يشيعون عنه أنه لا ينام ككل البشر، يملك عيني بومة، نظراته تخترق الجدران.

في عنف يضرب ليّ النارجيلة بالحائط.

-٥-

- انتي يا بت مايصحش كده.... استري نفسك.

- يا بابا في إيه بس؟.... الدنيا حر، وأنا في الشقة....

- والراجل اللي فوق السطح....

زوجته تشتبك في الحوار.

- يا راجل سيب البنت.... هيشوفنا إزاي بس اللي فوق السطح وهو علي نفس صف البيوت بتاعنا.

الغبية لا تدرك شيئًا عن سحر الزجاج، كيف يقف في الشرفة محدقاً في زجاج النافذة أمامه وقد عكس سميحة بائعة الخضرة، جسدها الممتلئ النابض بالأنوثة، المهيج لشيبته. صاحب الغية بالتأكيد يعرف بسحر الزجاج.

ثم ما يقال عن الحمام، عن مقدرة الضئيل الأسمر علي تفهم هديله، عن إرساله له محلقًا فوق الرءوس متابعًا لما يدور في الخفاء.

الحمام قد يقف متعلقًا بخشب الشيش المغلق، ناظرًا عبر فتحاته، يتابع شخيره أثناء النوم، إخفاءه لكرشه الضخم داخل الجلباب الواسع، عجزه أحيانًا مع زوجته، فول الصباح، اللحم الأسبوعي.

- قلت استري نفسك يا بنت الكلب.... وانتي يا ولية الشباك ده يتقفل ما ينفتحش ويتحط وراه ستارة ما تتشلش.... أحسن عليّ الطلاق ما تباتي فيها.

-٦-

سميحة تنهض بجسدها المثقل من طول الجلوس. تقصد نحو عقب السيجارة الملقي من شقة ابن مسافري الخليج. تلتقطها ثم تعود لتجلس خلف حزم الخضرة المرصوصة علي خيش يغطي قفصين خشبيين موضوعين متجاورين.

كانت موقنة من خلو الشارع. كانت في يقين كذلك من أن الضئيل بأعلى السطح يتابعها.

العقب لسيجارة تم لف بفرها يدوياً. فكتها ليسقط بين يديها الحشيش المفروك.

في تحدٍّ تحدق بعينين ثابتتين لامعتين نحو السطوح حيث الضئيل. تتمنى لو ترى عينيه. بالتأكيد يرى هو عينيها. أقسمت الست مديحة بحياة أولادها أنه ملك نظرًا حادًا مكنه من إرشاد الشرطة إلي خاتم رآه وهو يسقط من اللصوص في الشارع بينما كان علي السطح.

تحدق فيه بثباتٍ أكبر، رسالتها إليه واضحة. حول منصة بيعها للخضر تدور الأحاديث. تتفتح كنوز الأسرار. ملكت مفاتيحها وستملكها إلي الأبد، ولن تقبل المنافسة.

بالتأكيد التهمها بنظراته عندما كانت تدس يدها في صدرها هازةً ثدييها كي تحررهما من شد الملابس المعروقة الملتصقة بهما بعد أن تتيقن من خلو الشارع، سال لعابه كذلك علي فردها لرجليها، تدليكها لفخذيها.

عند الغروب وقبل انصرافها دار الحديث من جديد. هناك فاجرة دعته إلي فراشها كي لا يشي بها، أحدهم مده بالمال كي يراقب بيته طوال مدة سفر قاطنيه. رجل طلب منه أن يتابع سلوك ابنته.......

-٧-

ينصبون المسرح، يمدون الكهارب، يبشرون براقصةٍ تترع عنها العباءة السوداء، تكشف عن بدلة لامعة للرقص ولحم أبيض ناعم.

أعلى السطح وقف الضئيل. الظلام يوشك علي الحلول. أمسك برايةٍ ضخمة، يحركها يمينًا ويسارًا داعيًا الحمام إلى الهبوط.

الحمام تجمع من فوقه كسربٍ ضخم، يحلق في دوائر استعدادًا للهبوط.

مسامعه يجتاحها بين الحين والآخر أصوات الزغاريد، الطلقات المندفعة نحو السماوات المفتوحة احتفالاً.

من عَلٍ يسقط. يهرعون نحوه. يحيطون بالجسد وقد هشمه الارتطام واخترقت صدره رصاصة طائشة.



للصمت لون ضوءٍ أبيض



يقصد محسن الكرسي الخالي داخل المقهى. جلسته تجيء إلى جوار قفزات تدور حول صندوق الطاولة.

الشيخ الأعمى يتلمس الزهر، يعانق وجوهه بأنامله. يقذفه قبلةً طائرة لتستقر على الصندوق الخشبي.

يخبرونه بتحركات القشاطات، بالأرقام يعلنها الزهر المنقذف. يغالطونه في الأرقام.

يد الشيخ الأعمى تقصد مكان الزهر، تعاين وجوهه. أيديهم سباقة إليه، تغير من أرقامه المعلنة. تعود يده إليه وقد أكدت ما ادعوه.

يهز رأسه بالموافقة،

على وجهه استقر رفض صامت.

الأرقام الحقيقية التي يعلنها الزهر هي المطلوبة - تمامًا- لتحركات مثلى لقشاطاته. الزهر- بالتأكيد يستجيب "لغمزات" أطراف أصابعه، "لقرصاته".

محسن يخبط في حنو على فخذ الشيخ الأعمى. يستوقف الأيدي القاصدة العبث بأرقام الزهر.

بطرف عينيه يراقب الشيخ.

يستشعر بحثه عنه وقد لمس وجوده وأحس تأثيره.

وجهه موجّه نحوه. عيناه المغلقتان مسلطتان عليه، تبغيان الحديث إليه.

فور انتهاء العشرة لصالحه يهتف الشيخ بعبارات لا يدركها. يميل عليه، يُسِر إليه بحديث خاص، يد الشيخ تقصده، تستقر على فخذه، تربت عليه.

محسن يحرك يديه بالإشارات في الهواء.

لا جدوى مما يفعل.

يسكن تمامًا.

الشيخ لا يقدر على رؤيته.

هو أصم أبكم غير قادر على سماعه أو إسماعه صوته.

في يأس يلمس محسن أذن الشيخ وعلى ساعد الشيخ يرسم علامة خطأ. شفتا محروس تنفرج عن ابتسامة خفيفة. الشيخ أشار إلى عينيه وفي الهواء رسم علامة خطأ.

يعري كل منهما ساعده للآخر. الجمل الطويلة تستحيل لمسات بسيطة. الشعور دفقة تهز القلب، تندفع من أطراف الأصابع.

الشيخ الأعمى يفتح باب حجرته، يدعو محسن للدخول في أثره.

الضوء البراق يدفع محسن إلى إغلاق عينيه. يفتحهما تدريجيا حتى تعتاد البريق.

الحوائط المغطاة بطلاء أصفر جيري اكتست في غير نظام برسوم طباشيرية كثيرة. على الحوائط تنعكس الأضواء مختلفة الألوان في تداخلات خلابة بينها والظل.

محسن يحول بصره نحو السقف، في منتصفه "لمبة نيون"، محاطة تمامًا بقطع الكريستال.

الكريستال يحلل الضوء الأبيض.

محسن يتطلع الى الشيخ الأعمى. الشيخ يشير نحو الرسوم.

رسمها جميعًا.

يشرح له ما قصد تصويره بكل رسم.

الرسوم جميعها لا تقترب من هيئة ما تصوره.

الشيخ الأعمى يحرك يده بالطباشير على ركنٍ خالٍ من الجدار.

الرسم لم يكن يقترب من ملامح محسن، لا يحتوي ما يوحي -أساسًا- ببشريته.

محسن يعتقد في خطوطه وانحناءاته تصويرًا معجزًا له.

الشيخ الأعمى يعابث الأوتار. تتراقص بلحن مفعم بالشجن. رواد المقهى يتمايلون طربًا.

محسن يجمد مكانه.

النغمات يراها على وجه الشيخ، بات قادرًا على ادراكها.

الشيخ الأعمى يداعب أحد الأوتار بإيقاع رتيب. الوتر يرقص باعثًا نغمة واحدة، تتكرر.

الشيخ يهمس لمحسن إنها نغمة حمراء. يعابث وترًا آخر فيرقص بنغمة أخرى، يهمس لمحسن إنها زرقاء... هذه خضراء... السابقة صفراء... بنفسجية... برتقالية...

محسن عيناه على ملامح الشيخ. جلده في تحفز لاستقبال كل لمساته ودفقاته.

الشيخ الأعمى نائم على السرير. محسن يجلس على حافته.

الضوء يغمر المكان.

أخبره الشيخ أن الأضواء لن تطفأ.

متى حدث ذلك شعر بالظلام جاثماً على صدره، نهض من النوم فزعًا.

نصحه بأن يدفن وجهه تحت الغطاء حتى يجنب عينيه البريق.

ينهض محسن، يتحرك جيئةً وذهابًا في قلق. الضيق جاثم على صدره.

عيناه تقعان على العود الممدد على فراش الشيخ. يغير من رتابة خطواته. يسرع نحوه ويختطفه.

يضمه إليه.

يقلد لمسات الشيخ للأوتار لاستنطاق النغمة الحمراء، الخضراء، البرتقالية ....

عيناه معلقة بالألوان، الرسوم على الحائط، تداخلاتها معًا والظلال.

يمزج نغمات مختلفة الألوان، تعبر أذنيه صمتًا، ينتشي بها قلبه، تتسع ابتسامته. يتمايل طربًا. الرسوم على الحائط ترقص مع الأوتار.....

الشيخ الأعمى يجلس على الفراش، يتمايل وإياه في انتشاء.

بين يـدي الخضر



(١)

فجأة انقطعت كل الأحاديث. تعلقت الأنظار بعينيه الناعستين..

الشيخ راضي جلس كعادته وسط حلقة الأصدقاء، انفصل عن دنياهم المحدودة. لم يشعروا بذلك الانفصال إلا عندما وُجه إليه الحديث فلم يجدوا مجيباً.

العيون تتلاقي فيما بينها- بالتأكيد انطلق إلى عالمه الأثيري، الكل يخشى أن يحرك ساكناً، لن يلبث أن يعود حتى يخبر بكل شيء. العيون تعود للتحديق في وجهه، ترتسم على شفتيه ابتسامةٌ صافية، الوضاءة في وجهه تزداد، يودون جميعاً لو تشبثوا بروحه قبل انطلاقها، لو طافوا معها الأرضين والسماوات العلا.

ينتاب جسد الشيخ راضي رعدةٌ مفاجئة، الزبد يطفح من فمه، تلتمع العيون مع انفتاح عينيه، الضعف البادي عليه يمنعهم من طرح عشرات الأسئلة. ينهض جابر من بينهم، يتجه نحو الشيخ راضي، ينحني بجذعه أمامه، يلقي بذراع الشيخ علي كتفه، يساعده علي النهوض، يسيران متجاورين وقد ألقي الشيخ بثقله على جابر، بقيامهما انفضت الحلقة، تفرقوا جماعات سارت في اتجاهات مختلفة، بعضهم تبع جابرًا والشيخ، الأحاديث تناثرت فيما بينهم حول ما حدث، أجمعوا علي أن شيخهم _بالتأكيد_ قد التقى الخضر لمرةٍ أخرى.

يدخل جابر والشيخ إلى مسكن الأخير، لا يلبث جابر أن يخرج، يهتف بالمتحلقين حول البيت:

- انتم مش شايفين الشيخ تعبان إزاي ؟!!.

- أصل كنا موصيينه يسالنا الخضر عن حاجات كده.

صوت الشيخ يأتي ضعيفاً من الداخل:

- يا جابر خليهم يدخلوا.... ما حدش يترد من على بابي أبداً.

- بس إنت تعبان قوي النهاردة خصوصاً إن اللقاء طول.

يجيبه بصوتٍ أكثر وهناً:

- ما تتعبنيش يا جابر.

مَلَئُوا الحجرة الضيقة، رغبتهم في فتح الحديث تتكسر على صخور حيائهم، كياناهم جميعاً معلقة به. يتمتم ببعض العبارات بصوتٍ خفيض، اعتقدوا فيها كورْدٍ خاص به يتلوه بعد كل تحليق في العالم السماوي. جابر جلس قريباً منه جداً، يمد أذنه، يحاول تصيد الكلمات. أعوام مرت وهو لصيق به، أراد أن ينتمي هو الآخر إلى ذلك العالم الغيبي. أخبره الشيخ أن الأمر لا تحكمه قوانين محددة، اعتقد فيما قال لكن كان بداخله ما يشبه اليقين؛ الإنسان تجمع لعناصر كثيرة، ربما لو نقى هذه العناصر، لو انتزع منها الشوائب سيمتلك درجة من الشفافية تمكنه من التحكم في مادية الجسد، سيكسر سطوته ويحطم قيوده ويغادر مكانه في كل الأبعاد في لمح البصر.

عكف على قراءة كتب الروحانيات، محاولة الاستماع إلى الهمسات الخفية في جنح الليل، إجبار عقله على الإمساك بشتات الأحلام. الجلوس

لساعات طويلة من أجل استقراء ما وراء الطبيعة، من أجل ملء الفراغات في نسيج أسرار الوجود.

يؤلمه كثيراً أنه رغم ذلك المجهود العنيف لم يصل لشيء، لا زال محبوساً في سجن المادة، لا يوهن ذلك من عزمه. في داخله إيمان بأنه لم يولد إلا ليكون صاحب أعظم الأدوار، الشيخ راضي لن يُذكر إلا كشظية أسهمت في توهج شمسِه.

يلتفت الشيخ راضي نحو المتلهفين على كلمةٍ منه، ينظر باتجاههم لكنهم لم يكونوا أبداً هدف عينيه. نظرته بدت وكأنها إلى شيءٍ ما خلفهم، بل خلف الحائط الذي تنتهي عنده حدود الحجرة.

- يا اسماعيل التفاحة اللي بتقطفها وشايفها حلوة مدودة، اصبر واستنى شجرة تفاح ثانية تفاحها حلو... يا يونس، إتقالي إنك هتغرق رغم حتى تحذيري لك... يا مؤنس الشمس بتطلع بالنهار والقمر بييجي بالليل وعمر ما هيحصل العكس... ده اللي قاله ليّ سيدنا الخضر... بقية المسائل في اللقاء اللي جاي بإذنه.

- يا سيدنا الشيخ.... وجواز بنتي.

- لسة ما جاليش به خبر.... اصبر.

- إذا أنا صبرت العريس مش هيصبر.

يخرجون، يمعنون التفكير فيما أخبروا به، النجاة تعتمد على الاستقراء الصحيح...

جابر يجلس صامتاً، لا يريد أن يبدأ الشيخ بالحديث. يسود السكون لمدةٍ طويلة. يخرج الشيخ من تأملاته ليهتف بجابر فجأةً:

– النهاردة حصلت حاجة غريبة جداً... لأول مرة سيدنا الخضر يحضني جامد... كانت ذراعاته قوية قوي لدرجة إني حسيت إني بذوب فيه... بعدين سابني وبعد بعيد.. .. سمعته بيقولي: ما حدش بيفلت من القدر... ركزت على شفايفه ما كانتش بتتحرك، لكن صوته كان بيدوي في عقلي... ما حدش بيفلت من القدر حتى لو استخبى وراء الشمس والقمر... فيه روح بتطوف حواليك... ما فهمتش يقصد إيه، بس حسيت إن قلبي إتقبض... بعدين اختفى وفقت لقيت نفسي بينكم.

(٢)

في ظلام الحجرة جلس الشيخ راضي على سريره مفتوح العينين، يرقب ضوء القمر الفضي المتسلل عبر فرجة النافذة، عقله مشغول في تفكيرٍ عميق.

يحكي ما مر به أثناء تواصله مع الأطياف النورانية، سريعاً ما يستنبطون تفسيرات لما رأى. بينما يجلس في أي مكان، ينتابه شعور مفاجئ بالخفة، يجد نفسه وقد صعد عالياً، يبلغ في ارتفاعه السحاب، يحلق كطائرةٍ نفاثة، يصل إلى مكانٍ تحيط به المياه من كل صوب. يجد رجلاً يجلس على عرشٍ ذهبي مطعم بأحجارٍ كريمة شديدة التألق. من اللقاء الأول أدرك أنه الخضر. يجلس إلى جواره، المياه تجري من تحتهما في كافة الاتجاهات وكأنما تتفجر من تحت مجلسهما، على امتداد البصر شلالات تتلألأ مياهها كالألماس، لا يستطيع بعينيه المجردتين أن يدرك من أين تسقط. أقواس قزح بألوانها البراقة تملأ الأفق.

الخضر يتكلم، ينصت لما يقول- يسأله، يستمع إليه الخضر أحياناً، يشير نحوه بالصمت أحياناً أخرى.

يعود ليستجمع ما قيل، بعض العبارات تبدو مبتورة، بعض المشاهد لا تجد في الذاكرة ما يكملها، يحكي ما تسعفه به ذاكرته، الجميع يجدون فيها صورةً مكتملة. كثير من الأمور تبقى – بالنسبة له – ألغازاً لا يجد لها حلاً.

جابر يجد في حديثه حول الروح الحائمة تفسيراً سريعاً، أحضر الكثيرين من مريدي الشيخ، سألهم أن يسهروا على حراسته. يحاول الشيخ الاعتراض. لا يلبث أن يرضخ تحت تأثير النظرات المملوءة خوفاً عليه، الخوف الذي نفثه جابر في نفوس الجميع.

(٣)

في الحجرة المجاورة كان - ابر يحارب النوم، يخشى الاستغراق فيه، الحلم المعتاد سيداهمه- الشيخ يجلس في حلقته، يحاولون تقبيل يديه كالعادة، المسح على ملابسه، الفوز بدعاء منه. اعتاد الشيخ أن ينهرهم لكنه في الحلم يقرهم على ما يفعلون، الأمر يتطور إلى سجودهم بين يديه. جابر عادةً ما ينهض فزعاً على صوتٍ يخاطبه قائلاً:

- الأمور هتمشي كده..... بإيدك إنك توقفها ودورك إنك توقفها.

يتسلل إليه النعاس كلصٍ حذر يسرق يقظته، يجد في يده خنجراً يقطر دماً- الشيخ راضي ملقىً أمامه، من حوله يطوف المريدون. صرخاته الفزعة تطرد كل أثرٍ للنوم، يتجول في حجرته قلقًا، يفتح بابها، ينظر إلى البهو، الرجال المكلفون بالحراسة جميعهم نيام، يوقظهم، ينهرهم على هذا السبات الذي وجد طريقه إليهم، يعود إلى حجرته، الساعات تمر وهو جالس يحدق في الفراغ. فجأة، يشعر بنفسه خفيفاً جداً، روحه تنطلق تعبر جدران الحجرة، يجد نفسه محلقاً في سماواتٍ مفتوحة، لا يعرف كنه شعوره، كانت انطلاقته بهذه الطريقة حلم حياته، عندما تحقق الحلم صار شيئاً يخافه.

ينطلق في طريقٍ محدد بسرعة خارقة، لا يدري كيف عرف طريقه بمثل هذه الدقة، يصل إلى موضع تفجر المياه وانطلاقها في كافة الاتجاهات، الأحداث تمر. يحاول استرجاع ما قيل، مَنْ قابَلَ، عقله خالٍ وقد تبخر كل شيء، فقط هو في الحجرة، بيده خنجر لا يذكر كيف وجد طريقه إليه، صورة الشيخ ملقى أمامه تسيطر على عقله، ينهض، يتخبط في سيره، يجد نفسه واقفا علي رأس الشيخ وقد نام في فراشه، لم يعترض أحد طريقه وهو

في اتجاهه نحو حجرة الشيخ، يلمح في وجه الشيخ نفس الوضاءة والبشر تفيض به قسماته، يتحرك بخطىً مرتعشة إلى الوراء و ما زالت عيناه معلقتين بوجه الشيخ. المشاهد تتوالى أمام عينيه متصلة منفصلة كلقطاتٍ سريعة غير محددة المعالم والتفاصيل، أمامه الشيخ وقد باتوا يقبلون التراب تحت قدميه، يسألونه أن يسقط الأمطار، أن يخفف من حرارة الشمس، أن يكشف السارق، أن يفضح الكاذب، أن يترع الحقد من القلوب، أن يصم من يأتي السوء على جبهته بمجرد أن يفعله، أن يمنحهم السعادة.

فجأة ينقلب كل شيء، أوصدوه بالأغلال، انهالوا عليه ضرباً، قرروا أن يجعلوا صقراً يلتهم كبده حياً جزاء خداعه بعد أن فشل في تحقيق كل ما أرادوا.

يصرخ جابر:

– لا.... مش ممكن أسمح ان ده يحصل!

يده تهوي بالخنجر، ينظر للدماء تقطر منه، الشيخ الذي تدحرج من فوق فراشه واستقر على الأرض.

يخال نفسه ينهض فزعاً من حلمه، يصرخ في قوة، يدرك أنه لم يكن يحلم. المريدون يدخلون الحجرة إثر صرخاته الفزعة، الذهول يتربع علي وجوههم ، التفوا حوله، أيقن أنه لا بد هالك، لا يفتح فمه بكلمة، يجلس على الأرض، ينظر نحوهم، يتجهون نحو الشيخ، يلتفون حول جسده، يتمتمون بعباراتٍ هامسة، أذنا جابر لا تسمعان أياً من أحاديثهم، عيناه لا تريان أياً منهم، يشعر من جديد بأنه خفيف جداً، يجد نفسه طائراً في السماء، محلقاً بسرعةٍ خرافية فوق سطح الماء.



النخلة.. محترقة



شمخت النخلة بساقها عاليًا. سعفها المستعرض يناطح السحاب. كانت أزلية الوجود. أول ما خُلِق علي الأرض، ثم ومن حولها تكونت عناصر الأشياء. شجرة مباركة، مر بها الأنبياء وتمخضت عنها البركات.

وقف الحياة على خدمة الشجرة نعمة لم تنلها إلا عائلة مصطفاة. يرث ربها شأن الخدمة حتى يموت ثم يورثه لمن تلاه في المكانة.

في الطرقات سار إسماعيل. يسترشد بمخطط رسمته في ذهنه توصيفات أبيه. يجري أحيانًا بعض التعديلات في مخططه و في اتجاه سيره بناءً على بعض الاستفسار.

يقف حائرًا. يتلفت يمينًا ويسارًا. يجول قليلًا في الطرقات المجاورة، يعود للمكان نفسه. يتلفت يمينًا ويسارًا.

لا أثر للنخلة المباركة.

من غير الممكن ألا يكون هذا مكانها. بالتأكيد الزمن قد طبعه ببعض التغيير، لكنه المكان الأقرب.

يستوقف بعض السائرين، يصف لهم النخلة. يسألهم عنها. علا وجوههم جميعًا الأسف على عدم مقدرتهم على إرشاده.

من بين أنفاس واهنة يترصدها الموت يهمس أبوه:

- كنت خادم النخلة... وكنت شاب عاوز يجري ويجري.... سبت الخدمة المبروكة وخدتني الدنيا ..... وصيتي لك ترجع للنخلة.... تخدم وتنول الفضل وتدعي لي.

متعبًا يقصد أقرب ظل إليه. يجلس في كنف شجرة توت. يشرد، عيناه متطلعتان فيما وراء الأفق.

ينتفض لملامسة العصا ساقيه، الصوت المتهدج للعجوز.

- هو انت ابن مين يا وِلد؟!!

عيناه تمسحان الوجه الناحل الأسمر المتغضن، العينين وقد غطت سحابة بيضاء معتمة منتصفهما اللامع الشفاف، رجليه من تحته وقد قُطعت إحداهما أعلى الركبة.

- أنا غريب اسمي إسماعيل..... جيت أدور على نخلة مبروكة.... أبويا كان خادم عليها.

انتظر طويلًا الاستماع إلى أي رد.

- هه... يا وِلد ماقولتش انت مين؟!!

- أنا إسماعيل يا عم الحاج... غريب...

- تعرف يا ابني .... زمان ..... زمان قوي.... هو انت صحيح اسمك إيه؟!....

زمان كنت ماشي الفجر في الشارع بصيت لقيت عامود نار... عامود ماسك في النخلة البركة.... صرخت واتلمت الناس وجت المطافي.... صحيح يا ابني هو انت اسمك إيه؟!

- أنا إسماعيل يا عم الحاج.... إيه اللي حصل للنخلة؟!....

- نخلة إيه؟!!.....

يسحب إسماعيل رشفة من كوب الشاي ، ثم يعود للتحديق في أوراق الملف.

بين المكاتب الحكومية دار كثيرًا. القضايا التي حُفِظ التحقيق فيها تعدم بعد مدة. حاول الاعتماد على ذاكرة الموظفين. في نهاية المطاف وجد رأسًا يهتز مؤيدًا لروايته. موظف لم يكن الملف فقط في حوزته، بل احتفظ به لطرافته كذلك.

قضية وملف من مئات الصفحات لأجل نخلة تحترق.

" س: أنت ليه حرقت النخلة؟!

ج: أنا ما حرقتش حاجة!

س: تنكر إنك كنت متعود تاكل من بلحها الواقع على الأرض.... وإنك من يومين ما لقيتش على الأرض أي بلح فرميتها بالحجارة .... نزلك البلح مرة واتنين.... بعدين في مرة من المرات الحجر خبط في جذعها ورد في دماغك فتحها.

ج: يا سعادة البيه....أنا راجل عاجز، رجلي مقطوعة... هاحرقها ليه؟!! "

أمضى جل يومه الأول إلى جوار العجوز يجمع شذرات حديثه.

رجال المطافئ حاولوا السيطرة على عامود النار لساعتين كاملتين.

الشرطة طوقت المكان.

المحقق سأل الناس حتى عن عدد مرات مضاجعتهم لزوجاتهم.

يعترض طريق المهندس حسن.

- عم الشيخ القاعد تحت شجرة التوت بيقول: انك يوم ما اتحرقت النخلة المبروكة كنت بتعيط بالدم ... وانك أكيد فاكر اليوم ده.... علشان لما اتحرقت ضاع كل اللي كنت بتحفر وتخبيه تحتها.

- نخلة إيه يا أستاذ؟!!

- النخلة اللي حضرتك كنت بتلعب عندها أستغماية وانت صغير.

- أستغماية إيه يا أستاذ؟!!.... ده راجل مخرف.... ما لوش سيرة غير الحكاية العجيبة دي... عيالنا واحنا كمان لما كنا عيال.... ما لعبناش أستغماية غير حوالين شجرة التوت... وعمر ما كان فيه نخلة في يوم من الأيام.

" س: انت ليه حرقت النخلة؟!!

ج: يا بيه والله ما حرقتها...

س: تنكر إن ابنك حاول يطلع النخلة ووقع من فوقها.... وفضل كام يوم بين الحياة والموت.

ج: ولولا بركتها كان مات يا بيه... ده مقدر يا بيه وهي اللي حمته من الموت. "

" س: أنت ليه حرقت النخلة؟!

ج: وهاحرقها ليه؟!

س: يا سعيد ما فيش حاجة بتستخبى... تنكر إنك كنت بتقابل حبيبتك في السر عند النخلة... و إنها اتخطبت لغيرك من كام يوم... وانك حرقت النخلة علشان ما تبقاش حاجة تفكرك بيها.

ج: أنا بريء... والله بريء... وبعدين ده اللي يمس المبروكة تنخسف به الأرض. "

" س : انت اللي حرقت النخلة .... حمارتك كلت من بلحها وماتت مسمومة.

ج: يا بيه الشجرة مبروكة وبلحها مبروك..."

يطوف على جميع أهل المكان يسألهم عن النخلة المباركة.

لا أحد يدرك وجودها.

بائع الخضر لم يربط حمارته يوماً لغير شجرة التوت، الحمارة لا تأكل إلا التوت من الأرض. الصبيان لم يتنافسوا يوماً إلا على تسلق جذع شجرة التوت. جذع شجرة التوت هو الجذع الوحيد الذي حمل أسماء العاشقين والقلوب التي تخترقها السهام.

الجرافة تنفث دخانها الضبابي. محركها يزمجر.

النخلة المتفحمة باتت تقف كلطخة سوداء، صادمة، جاثمة على الصدور.

الجرافة تصطدم بالنخلة المترمدة، تنزعها.

من خلف الجرافة وقد حملت النخلة سار الجميع.

وقفوا يرقبون إهالة التراب عليها، العيون ملآنة بالدموع.

شجرة التوت أزلية الوجود. أول ما خُلِق على الأرض، ثم ومن حولها تكونت عناصر الأشياء. شجرة مباركة، مر بها الأنبياء وتمخضت عنها البركات.

وقف الحياة على حدمة ا شجرة نعمة لم تنلها إلا عائلة مصطفاة. يرث ربها شأن الخدمة حتى يموت ثم يورثه لمن تلاه في المكانة.

تحت الشجرة جلس إسماعيل خادمًا لبركتها المهداة، منفذًا لوصية أبيه. عيناه تتطلعان إلى عجوز خرف. وجهه ناحل أسمر متغضن، عيناه غطت سحابة بيضاء معتمة منتصفهما اللامع الشفاف. رجلاه من تحته قُطعت إحداهما أعلى الركبة. العجوز يبحث بيده في الأرض من حوله عن التوت المبارك. لسانه لا يفتأ يردد حكايات لا أصل لها عن نخلةٍ لم توجد يوماً!!

النّداهة

بمحاذة النيل يسير مادًا الخطى. صوت ملائكي عذب يتسلل إليه، يبدأ كهمسات حانية، لا يلبث أن يطغى على حفيف الأشجار ،زقزقة العصافير،يملك عليه كل كيانه.

يدور حول نفسه، يهم بالعدو في الاتجاه المعاكس.

الصوت يزداد عذوبةً وارتفاعًا. كالمخدر يسير نحو مصدره. في منتصف النيل يرى قصرًا ماسيًا، يتلألأ تحت شمس المغيب الناعمة.

يخترق الماء بملابسه كاملة. يسبح نحو القصر.

يخرج من الماء أمام باب القصر مباشرةً. يجد في استقباله فتاتين رأى فيهما أبهى من أنجبتهن الأرض، تقتادانه إلى الداخل. عيناه تجولان في كل شيء من حوله.

تنزعان عنه ملابسه. تلبسانه سترة ذهبية محلاة بالجواهر والألماس. تعطرانه بروائح فردوسية.

تدخلانه إلى حجرةٍ أكثر فخامة، تتركانه بمفرده.

يستشعر اقتراب الصوت الشديد العذوبة منه. يُفتح الباب لتمثل أمام عينيه أجمل حور الجنة. تقترب منه. يهتز قلبه في صدره. تغني له كقيثارة مشدودة الأوتار.

تمسح على رأسه. تتركه دون ارتواء وتبتعد. يهم بملاحقتها. تشير إليه أن يثبت مكانه.

- يكفي هذا الآن. ستمكث معنا يومين... بعدها سندبر للقاءات كثيرة...تترك فيها دنياك القبيحة لتأتي إلى واحتك المحببة...تعالي إليّ وامنحني قبلة.

ينهض مترنحًا كمخمور. عيناه مثبتتان على جيدها. شفتاه تلتهماها قبل أن تصلا إليها.

يتعالى وقع خطوات قوي. بيديها تعيق تقدم شفتيه. تتركه يتلظى بنيران الوصل والهجران. تتجه نحو باب الخروج.

- لا تتحرك من هذه الحجرة. لا تنظر نحو القاعة الكبرى... متي فعلت سيستحيل النيل حوضاً من حمم، سينهار القصر، سألقى مصرعي، وستعود إلى ما كنت فيه من شقاء.

ضجيج غريب يطرق أذنيه. في فضول يتحرك نحو الباب ببطء. يستمع إلى أصواتٍ متداخلة لشجار. يلصق أذنه بالباب.

تحت تأثير الفضول يفتح الباب قليلاً. قرر ألا ينظر بعينيه إلى ما يحدث، سيكتفي بأذنٍ متسللة.

- إذاً فأنت تجترئ على رفضي....

- لا يوجد عاقل على ظهر الأرض قادر علي رفض عرضك...لكن كما أخبرتك، لقد كنت أمد الخطى...سأتم طريقي وأعود إليك.

– من حظي بلقائي لا يفكر في أي شيء إلايَ...حتى عندما أغادره لبعض الوقت...يبقى طوال ذلك الوقت شاخصًا ببصره نحو النيل، منتظرًا ظهور القصر من جديد...

صرخة رعب وفزع هائلين تجتاحانه. جسده ينتفض. عيناه تتحولان رغماً عنه نحو فرجة الباب. يلمح رجلاً في نفس عمره، وقد أمسكت به من رقبته امرأة شديدة القبح، عيناها كرتان من لهب، شعرها شوك مشرع.

ترفعه كدميةٍ خفيفة الوزن. ينتفض محاولًا التخلص منها. عيناه تجحظان، وجهه بلون الدم. تدفع به إلى حوضٍ مُلئ بالماء. تحافظ على رأسه تحت سطح الماء.

يغلق الباب بيدين متصلبتين. يتسلل على أطراف أصابعه إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه. يبلع لعابه في صعوبة.

تعود إليه شديدة البهاء، تقترب منه، تمسح بيدها على رأسه، تهم بتقبيله.

يكتم أنفاسه، يحاول أن يبادل فعلها بفعل.

تبتعد عنه.

– لماذا سمحت لعينيك بالتجسس عليّ؟.

– التجسس عليك؟!...ما الذي تقولينه؟!

تقترب منه. ينكمش في جلسته. تميل على أذنه، تهمس فيها:

– على إحدى ضفاف النيل، ستقضي باقي عمرك كنخلةٍ عمياء، صماء، بكماء، تحاول أن تهتز في عنف بائحةً بالسر – كلما انطلقت الرياح حاملةً صوتي – لكن بلا جدوى.



المتسلّل



اعتاد أن يجلس أمام بيته، يحدق في الخط الذي تلتقي عنده خضرة الأرض بصفاء السماء، ويشرد لساعات. بين الحين والآخر يمر به أحد سكان القرية، ينتزعه من شروده بتحيةٍ دافئة. يرد عليه باقتضاب، ثم يعود إلى ما كان عليه.

من بعيد أخذ حامد في الاقتراب منه ممتطيًا حماره، وقد أجلس ابنه الذي لم يتجاوز الثالثة على ظهر الحمار.

- السلام عليكم يا سيدنا الشيخ.

- وعليكم السلام ورحمة الله.

كان حامد قد ابتعد بحماره لمسافةٍ غير قصيرة عندما صكت مسامعه صيحات الشيخ تستدعيه. يستدير بحماره عائداً.

- نعم يا سيدنا الشيخ.

- تعالَ هنا يا حامد...قرّب.

- هو فيه حاجة؟!!

- تعالَ بس.

في تردد يهبط من فوق حماره، يتجه نحوه بخطىً ضيقة.

الشيخ يحدق بشدة في حامد. عيناه تكادان تقفزان من محجريهما. جسده ينقسم إلى جسدين. أحدهما شفاف، يتحرك في نعومةٍ وانسيابية. والآخر لا زال على حاله من الجمود والتحديق في حامد.

الجسد الشفاف لا يلبث أن يتحرك نحو حامد. بدا كطاقةٍ نورانية، تتداخل أشعتها حتى تستحيل إلى سهمٍ ضوئي شديد التركيز، يحمل علي مقدمته ملامح وجه الشيخ. السهم يخترق صدر حامد عند موضع القلب تماماً.

في هدوء أخذ الشيخ يجول داخل قلب حامد، يتطلع إلى حركة جدرانه الدائبة، إلى الدماء الدافئة التي تتسرب إليه ثم تندفع في قوةٍ منه. جدران القلب من حوله ناصعة البياض. كان عليه أن يجد بؤرة القلب السوداء، أن يعاينها ليكتشف مقدار تمددها. لا يكاد يتقدم بضع خطوات حتى فوجئ "بريمٍ" أسود يغطي كل شيء من حوله. رائحة عطنة هاجمه في ضراوة. في تأففٍ وضيق واصل تقدمه. أدرك ما حدث. البؤرة السوداء تمردت على جدار القلب الذي كانت مدفونة فيه. بزغت كقبةٍ سوداء، محاطة بظلمة حالكة، تمددت واتسعت، التهمت في طريقها كل الجدران البيضاء، لم تبقِ إلا ذلك الجزء الصغير الذي دخل منه وكاد يخدعه في البداية.

الشيخ يقفز ليخرج من نفس موضع دخوله. يندفع كسهمٍ نوراني، يتشكل على هيئة جسمٍ شفاف، يحمل تفاصيل معالم جسد الشيخ. يتحرك الجسم الشفاف في انسيابية نحو الجسد الذي ما زال على جموده، وتحديقه في حامد. يتداخل الجسدان. الشيخ يهتف بحامد الذي وقف أمامه زائغ البصر، ذاهلًا عما حوله:

– حامد...إنت عملت إيه؟!!

حامد ينتفض. يحتقن وجهه. لا يتحرك لسانه إلا بلعثماتٍ لا معني لها. الشيخ يجذب لحيته البيضاء في ضيق. تمتلئ عيناه بالدموع. يصيح بصوتٍ متحشرج:

- ليه يا حامد؟!!

كان قد اعتاد أن يبحث عن البؤر السوداء داخل قلوب الجميع. دائماً ما يجد تلك البؤر في تغيرٍ مستمر. تتغلب على مقاومة الجسد حيناً فتبزغ وتتمدد قليلًا. أحيانًا أخرى تنجح مقاومة الجسد في محاصرتها وتضييق الخناق عليها.

في ألم يهتف الشيخ بأحد الصبية أن يستدعي بعض أهل القرية الذين عينهم له. يقتادون حامد طبقاً لأوامر الشيخ إلى الأرض القاحلة. حامد يحاول التملص من قبضات الممسكين به. طفله الذي تركه على الحمار لم يكف للحظة عن البكاء. يقترب منه الشيخ وقد أخذت لحيته تقطر بالدموع، بعد أن تشبعت بسيلٍ عارم انطلق من مآقيه. يضمه إلى صدره. يهدهده. الطفل يحاول الإفلات من بين ذراعيه. يرمي نفسه في جنون نحو الاتجاه الذي سار فيه أبوه. الشيخ يربت على ظهره. يضمه إليه أكثر فأكثر. يتجه به نحو مجلسه أمام مترله.

إذا تجاوزت البؤرة السوداء حدودًا معينة، يأمر الشيخ أهل القرية أن يقتادوا صاحب هذا القلب إلى أرضٍ قاحلة واسعة، يحيط بها سور ضخم، عرضه متران. ارتفاعه ارتفاع جبلٍ شاهق، لم يستطع أحد أن يدور حوله يومًا. إذا ارتفعت الشمس رفضت أن تمنح أيًا من ضيائها إلى هذه الأرض. إذا ظهر القمر ضن بأشعته الفضية عنها. دائماً ما يرتعد قاطنوها من شدة البرودة. ليل نهار يحاولون تفادي هجمات النباتات والحيوانات المتوحشة.

الطفل فمه مملوء بالصراخ. كافة محاولات الشيخ التي بذلها من أجل تهدئته كانت معدومة الجدوى. الشيخ يحدق بشدة في الطفل. عيناه تكادان تقفزان من محجريهما. جسده ينقسم إلي جسدين. أحدهما شفاف، يتحرك في نعومةٍ وانسيابية. والآخر جامد لا زال على حاله من التحديق في الطفل.الجسد الشفاف لا يلبث أن يتحرك نحو الطفل. يستحيل إلى سهمٍ نوراني يخترق صدر الطفل عند موضع القلب تماماً. ما رآه في قلب حامد بدد سَكينة نفسه. كان عليه أن يستعيد سلامه الروحي. قرر أن يخترق قلب الصغير، أن يعالج عينيه بجدران شديدة البياض، أن يفتح أنفه الذي سده الزكام بروائح طيبة نفاذة.

رجفات الطفل المصاحبة للبكاء انتقلت إلى قلبه الذي أخذ يرعد. كان الشيخ مستمتعًا بجولته رغم هذه الهزات العنيفة. في اعتيادية قفز محاولًا الخروج من نفس موضع دخوله. يفشل في الخروج. يحاول بإصرارٍ أكبر، بقفزاتٍ أعنف. مع الاهتزازات الدائبة للقلب لا ينجح في ضبط توقيته مع موضع دخوله. أُسْقِطَ في يده. يتملكه الوهن. يثبت على حاله. بكاء الصغير وانتفاضاته تزداد حدة، معها تزداد حدة اهتزاز جدران القلب. الشيخ يشعر وكأنه في مواجهة زلزالٍ عنيف لن يلبث إلا أن يشق الأرض من تحته، فتبتلعه في جوفها. على جدران القلب ناصعة البياض تظهر بعض الصور والظلال. الشيخ يرى نفسه وقد أمسك بخرقة بالية سوداء. يمس بها قلبًا تلو الآخر في صفٍ طويل يمر أمامه. لا يكاد يمس أيًا من هذه القلوب حتى يستحيل لونه إلى حلكة الليل غير المقمر. قبالته ظهر طفل حامد. ما أن تمر القلوب أمامه حتى يُخلق لها أصحابها من العدم. تقفز القلوب إلى أماكنها داخل صدور أصحابها. الصغير يضع يده على موضع القلب من الرجال الذين سبق أن صبغ الشيخ قلوبهم. تبدو يد الصغير وكأنها

تستدعي ماءً رقراقًا من السماء، لشدة صفائه تكاد العين ألا تراه. الماء ما أن يمس القلوب حتى تستحيل بيضاء من غير سوء.

صوت انهيار يفاجئ الشيخ. ينظر إلى جدار القلب الواقع خلفه حيث انبعث الصوت. يرى الأرض القاحلة المحاطة بالسور الضخم وقد ارتسمت عليه. السور وقد انهار في مواضع عدة. الشمس تبذل قصارى جهدها في نسج ثوبٍ ذهبي يغطي الأرض المُسَوَّرة. حامد يظهر وقد أحاط به الرجال الذين يقتادونه إلي الأرض القاحلة. الصغير يشير إلى الرجال فيقفون جامدين. حامد يهرع نحو ابنه. الرجال داخل الأرض القاحلة يندفعون في تطهيرها من حيواناتها ونباتاتها المتوحشة. بكاء الطفل يزداد. انتفاضاته تتضاعف. اهتزازات جدران القلب باتت في غاية القوة والعنف. فجأة يهدأ كل شيء. الشيخ يستغل الفرصة ليقفز خارج الصغير. يتحد الجسدان. الشيخ ينحني للأمام في ضعف. يستند إلى ركبتيه. يلهث. يرفع عينيه نحو الصغير. فوجئ به بين يدي أبيه. يدرك كل شيء دفعةً واحدة. الصغير سكن عندما أيقن أنه قد استرد أباه.على ما يبدو فقد غافل الأب الحراس، وانطلق من بين أيديهم هارباً قبل أن يُودِعوه الأرض القاحلة.

الصغير يخبط في سعادة على ظهر وصدر أبيه. يده تلمس موضع القلب منه. يندفع إلى ذهن الشيخ مشهد الماء الرقراق المندفع من السماء. لم يكن ليراه لكنه استشعر حدوثه. الرجال يمسكون بحامد، يبغون اقتياده من جديد إلى الأرض القاحلة. يشير نحوهم الشيخ أن ابتعدوا عنه. يتحرك نحو منزله. يلقي نظرة خاطفة على حامد وصغيره، وقد اعتليا الحمار وطفقا يبتعدان. ينظر إلى الأرض القاحلة، وقد أحاطها السور الضخم، وشملتها الظلمة الحالكة. البرودة تتسلل إلى قلبه. يدخل بيته. يغلق الباب من خلفه.



الحلم الذي لم يفسره يوسف



الشيخ الجالس أمامي يُعَدِّل من جلسته، تتوقف يده عن تمرير حبات المسبحة، فمه عن التمتمة بالتسابيح.يشملني بنظرةٍ فاحصة

كنت قد أمضيت أشهرًا طويلة في البحث عنه.دخلت هذه الزاوية الصغيرة مصادفةً، فوجئت به جالسًا في أحد الأركان.أقترب منه ببطء، أجلس أمامه.يمضي بعض الوقت قبل أن يرفع عينيه نحوي.يبتسم لي، وهو يخبط على ركبتي. يلمح في عينيَّ تساؤلاتٍ كثيرة، يهز رأسه في تفهم، إشاراته تدعوني للحديث.

– شُفْت حلم جديد.

تلتمع عيناه.

أجد نفسي وسط جمعٍ هائل من البشر. أسير معهم في طريقٍ طويل مظلم، وغير ممهد، عن يميننا جبل ضخم. أتوقف لوهلة عن السير. تظهر على وجهي دلائل التفكير والحيرة الشديدين. أقصد الجبل، أتسلقه، يضيق صدري كلما ارتفعتُ، رغم ذلك أجدني مدفوعًا بقوةٍ داخلية خفية لاستكمال الصعود. أصل للقمة، أنظر لتيارات البشر المتدافعة عند سفح الجبل. رغم المجهود العنيف الذي أبذله للحصول على شهقات_لا ترضخ لي في سهولة_ أقرأ علي وجهي راحةً لم أعايشها من قبل. أهبط الجبل مسرعًا، يداخلني يقين بأن اكتمال النشوة في الالتحام مع صفوف البشر الطويلة.

لا أكاد أغادر الجبل حتى يختفي من أمام عينيَّ، مكانه ينتصب فراغ لا نهائي. أندفع مع الناس في الطريق الطويل الغير ممهد نفسه.

لا أكاد أفرغ من رواية الحلم، حتى عاجلني الشيخ بسؤاله:

– سيدنا يوسف ظهر لك بعد الحلم برضه؟!

– نفس اللي كان بيحصل مع الحلم اللي فات. بعد الحلم بحلم إني صحيت، ألاقي سيدنا يوسف قدامي، بيشاور ناحية قلبي مرة والثانية...بعد كده بيسيبني ويمشي من غير ما يفسر الحلم.

أصدقائي يحدثونني عن شيخٍ اعتاد تفسير الأحلام. سردوا على مسامعي كل أوصافه. أسألهم" أين أجده ؟". لا أحظى بجوابٍ شافٍ. أخبروني أني سأعثر عليه في بيوت الله.

أصطدم بكتف أحدهم، وأنا سائر بجوار أحد المساجد. أنظر إلي وجهه، شيء ما فيه يؤكد لي أنه الشيخ بغيتي. لا أكاد أقص عليه حلمي حتى سألني:

– يا تري بيظهر لك نبي الله يوسف بعد الحلم؟

أحدق فيه في عجب.يعيد على مسامعي السؤال نفسه.

– بعد الحلم دائماً بحلم إن فيه شاب أخذ من الجمال اللي ما أخذوش أي بني آدم...فيه صوت جوايا بيقول إن ده نبي الله يوسف....أسأله يفسر لي الحلم، لكنه ما بيفسروش...دائماً بيشاور على قلبي مرتين...بعدين بيسيبني ويمشي.

– وعاوزني أفسر لك اللي مارضيش سيدنا يوسف إنه يفسره...عموماً أنا هاسعدك ..سيدنا يوسف لما بيشاور على قلبك بيقول إن التفسير جواك، وانك هاتوصله بالتفكير.

- طب وليه بيشاور مرتين؟

- اللي أقدر أقوله لك...إنك ما دام شُفْت سيدنا يوسف في الحلم، يبقي إنت تشبهه...اقرأ قصته من جديد.

اعتاد الحلم أن يطرق بابي كل ليلة. أرى وكأنني أطفو على سطح بحرٍ واسع، تضمني مياه دافئة. عيناي مغمضتان. أجاهد كي أفتحهما في مواجهة شمسٍ عابثة، تداعبني بأشعتها المسلطة. أضرب الماء بذراعيَّ ورجليِّ في عنف، أقلب نفسي في الماء، يبدو وكأنني أبحث عن شيء ما. حركة ذراعيَّ ورجليَّ تزداد عنفًا، تدفعني للسباحة في دوائر، تتكون حولي دوامة توشك أن تبتلعني. أجاهد المياه. رغم أن حركتي أصبحت في اتجاه معاكس لحركة الماء، إلا أنني لا زلت راضخًا لسطوته، منقادًا لتياره. فرع نبات_يحمله طائران هيمان بين منقاريهما_أجده أمامي. كان الفرع أمامي طوال الوقت، لكنني لم أكن أراه. أمسك به. يحملني الطائران بعيدًا عن الدوامة. لا أكاد أصل إلى المياه الآمنة، حتى أترك الفرع. أطفو على سطح الماء. أتنازل عن كل محاولاتي البحثية.أكتفي بالاستمتاع بمياهٍ دافئة، وشمسٍ هادئة، وعينين مفتوحتين.

في إحدي جلساتي مع الشيخ يسألني:

- يا تري سيدنا يوسف كان عارف معنى الحلم اللي جاله بإنه شاف حداشر كوكب والشمس والقمر بيسجدوا له.

أنظر نحوه في بلاهة.

- لو كان يعرف ماكانش حكاه لأبوه سيدنا يعقوب...والدليل علي إن التفسير كان سهل ،إن سيدنا يعقوب نصحه ما يقولش لاخواته علشان

ما يحقدوش عليه..انت عارف، التفسير قدام عنيك لكنك مش شايفه...فكر انت إيه اللي شاغلك دلوقتي وهتلاقي ده بيبين حاجات كثيرة.

أهم بأن أخبره عما يشنس عقلي، عما أعانيه من حيرة.يشير إليّ بأن ألتزم الصمت.

قلبي ينبض داخل صدري مثل كل الأحياء، أتساءل عن معنى هذه النبضات.

– انت عارف يا سيدنا الشيخ، إني قريت في مرة_مش عارف فين بالضبط_إن فيه اعتقاد عند بعض اللي بيؤمنوا بتناسخ الأرواح...إن الإنسان بيعيش مرة واتنين وتلاتة....في كل مرة بيلبس شكل وجسم مختلف...لغاية لما بيعرف المعنى الحقيقي للحياة، وإزاي يعيش فيها سعيد...بعدها بيموت ومابيرجعش، لأنه مش محتاج يرجع.

– مش مهم إنت قريت إيه، المهم هتوصل لإيه.

– طب، هو ليه بعد التدوير والنجاة بسيب اللي لقيته وبنزل البحر ثاني وانتهي للنقطة اللي عندها ابتديت.

عندما كنت صغيرًا، استمتعت كثيرًا بقصص الأنبياء، يقصها عليَّ والدي، وقد جلست وإخوتي في حلقةٍ من حوله.استمعت إلى قصة نبي الله يوسف عشرات المرات.أعاود قراءتها بعد أن حلمت حلمي الثاني.

لقد ملكه الله أسرار الأحلام. فسر حلميّ كبير سقاة وكبير طباخي ملك مصر. تنبأ للأول بعفو الملك ورأى الثاني وهو يتدلى من حبلٍ يلتف حول عنقه.رغم ذلك عجز عن تفسير حلم صغره، حلمه الأول.

يومض الشبه الذي بيني وبينه كومض البرق. أدرك سبب إشارة نبي الله يوسف إلى قلبي مرتين. إن حلمي الثاني يحمل تفسير حلمي الأول، تماماً كما حمل حلم ملك مصر تفسير حلم نبي الله يوسف الأول. لقد فتح له تفسير حلم ملك مصر الطريق إلى تولي شئون مصر، إلى سجود الشمس والقمر والأحد عشر كوكباً بين يديه، إلى إدراك المعنى الخفي وراء كل ما حدث له منذ ألقي في البئر.

- سيدنا يوسف كان بيشاور لقلبي مرتين، علشان يقولي إن فيه حلم تاني هيفسر لي الحلم الأولاني.

يبتسم في جذل وتأييد. ملامحه تشجعني على المضي قدمًا في الحديث.

أحاول تسلق الجبل، النظر إلى نفسي وإلى الناس من عَلٍ، استشراف ما يسعى إليه الجميع.

التفكير يضنيني.رغم ذلك أواصل الصعود. النظرة العلوية تجعلني أشبه بإله. بعض ما أراه يملأ قلبي بالنشوة، بعضه الآخر يغتال براءتي.

أعود إلى تيار البشر. أقفز إلى البحر. الصورة التي حصلت عليها لا أستحضرها أمام عينيَّ، أحتفظ بها في عمقٍ سحيق من لا وعيي.لا أفعل شيئًا سوى الاستمتاع بالمياه الهادئة والشمس العابثة.

- ما قولتليش.... إيه بقى تفسير الحلم اللي وصلت له؟

- يعني ما كنتش تعرفه من الأول ؟؟

- قول بس.... إنت وصلت لإيه .

أتركه وأنصرف ، مستمتعًا بالحيرة الشديدة المرتسمة على وجهه، والتي رسمها على وجهي عشرات المرات من قبل !!



ميـــــلاد

أمام عينيَّ تتوالد مشاهد الدرجات، الجدران المحيطة. أصل قمة البناية الشاهقة. أعدو نحو سورها. أعتليه. أنظر نحو الأسفل. الضباب حائل كثيف بيني وبين رؤية الأرض.

أقفز.

وجهها يغمرني بضياءٍ براقة. يصحبني عبر سقوطي. يتلقفني ذراعاها الحريريان.

أنهض من نومي. أتلفت حولي باحثاً عنها. لا شيء غير ما اعتدت رؤيته في غرفتي، وقد غلف الظلام كل شيء، كما غلف الغطاء جسدي في الفراش.

بين مرتادي المكان أعثر على وجهها. أقف أمامها محاولًا استنطاق لساني. إيماءاتها تحمل تشجيعًا على البوح. أعلنها بسر رجفة الفؤاد، ارتعاش الأطراف، اختلاج الشفاه.

صوتها يندفع من بين أحضان ابتسامةٍ دافئة هادئة:

– على الفراش أجلس. أمد يدي نحو علبةٍ امتلأت بأقراص المنوم، كانت موضوعة جواري علي "الكوميدينو". أفرغ محتوياتها في كفي. أهم بابتلاع كل الأقراص. قبضتك أحاطت بساعدي في قوة. عيناك اخترقتاني. نظرتك دفعتني إلى الاستيقاظ كي أبحث عنها في عالم الوعي.



حسنة كبيرة أعلى الفخذ



في وسط الصحراء حيث اعتادوا الاحتفال بمثل هذه المناسبات أقاموا السرادق، نشروا الزينات والبالونات، مدوا بساطًا من السجاد بطول مائة متر من السرادق إلى عمق الصحراء باتجاه الجبل.

الفرحة ترتسم على كل الوجوه. الأيادي تتحرك مصفقة مع النغمات الراقصة، الأجساد تهتز منتشية على إيقاع التصفيق. يقترب حامد من الكوشة التي جلس فيها العريس بمفرده:

- مبروك... ألف مبروك.

- مش عارف قلقان ليه يا حامد ؟!

- حد يقلق في يوم زي ده.

- البنت صغيرة وحلوة وخايف يطمع فيها.

- بقاله سنين ما تتعدش من قبل حتى ما يتولد جدودنا وهو بياخد البنات اللي على وش جواز وعمره ما اتأخر في ترجيع واحدة. وبعدين يا عبيط ما هو علشان تتجوزها كان لازم تروح معاه. ولا أنت نسيت إن ما فيش بنت بنوت ينفع تتجوز إلا لما ياخدها الأول وراء الجبل. وإنك كنت بتستعجل اليوم ده.

ينتزعهم من حديثهم هتافات الأطفال وهم يجرون:

- العروسة جت... العروسة جت.

من بعيد كان يتقدم. خطواته تزلزل الأرض. كانوا قد اعتادوا رؤيته. رغم ذلك أخذت ترتعد منهم الأوصال وقد جمدوا في أماكنهم.

كان جسده في طول جبل ضخم، عيناه كهفين عميقين. مع اقترابه أخفى جسده قرص الشمس. يميل بجذعه. يلمس بظهر يده المقبوضة الأرض – تمامًا – أمام البساط المفروش. يفتح يده. العروس تتحرك على كفه. تحاول الهبوط من بين أصابعه التي تشبه كل منها شجرة ضخمة. يساعدها بإمالة يده قليلًا. فور وصولها للأرض، ينهض في سرعة يعدو نحو الجبل بخطوات واسعة تكفى الواحدة منها لعبور مدينة كاملة.

لم يكد حامد يصل منزله حتى اتخذ مجلسه تحت النافذة يحدق في النجوم المتناثرة على صفحة السماء. تقترب منه زوجته. تضع يديها حول رأسه، تقبل جبينه، لا تلبث أن تنهار باكية.

في ليلة العرس جلس حامد وسط الرجال. كادوا يسقطون جميعًا من فوق كراسيهم عندما ارتجت أجسادهم من شدة الضحك. بعضهم أخذ يعبث بشاربه. البعض الآخر يضرب على صدره. البعض الثالث يزيد من غلظة صوته وهو يقول:

– الليلة عريسنا الهمام هينكشف مستوره.

لمرة أخرى انطلقوا يقهقهون لأقصى ما يستطيعون.

– والله أنا خايف الواد النطع ده يفضحنا.

لا يشاركهم حامد الكلام. في صدره أخفى ما أفضت له به زوجته. ليلة عرسه أقبل عليها. تطارده صورة العملاق الذي نالها قبله. ابتسامة الرضا التي لمحها على شفتيها بددت بعض قلقه. كاد ينهض من فوق

الفراش صارخًا معلنًا انتصاره. بدلًا من الصراخ قرر أن يذوق طعم النصر لمرة أخرى وفى الليلة نفسها. صرخات زوجته النشوانة، ابتسامات المتعة التي لم تغب عن شفتيها تبث في عروقه سعادة نجاح لم يستشعره قبل ذلك أبدًا.

وسط أنفاسها الحارة المتسارعة تبوح له بالسر. تخبره كيف تتفنن النساء أمام أزواجهن في إظهارهم أكثر قوة وفحولة. كيف أنهم جميعًا لم يستطيعوا أن يمحوا أثر الليلة التي قضينها مع العملاق وأنه هو الوحيد الذي استطاع بما فعله الليلة أن يزيل كل أثر لذكرى لقائها به.

لا يعرف بما يجيبها. يشعر بيد تحيط بعنقه تكاد تجهز عليه.

يحيط وجهها بيدين حانيتين يسألها أن تكف عن البكاء. يضمها إليه. تزداد حدة بكائها. يسمع في أذنيه ضجيجاً شديداً. يستطيع أن يميز فيه جملًا محددة.

" ستجيء الأيام بفتى يحمل على فخذه حسنة كبيرة سيغير من الرتابة التي تأتي وتنحسر بها الشمس. ستلطمه الحياة. ولأن أنفه شامخة ولأنه يحمل العلامة سيتحرك بما يستحق أن ينحني له الجميع لأجله "

الضجيج في أذنيه تزداد حدته. الجمل تتكرر بصوت أعلى بإيقاع أسرع. ينزع زوجته من فوق صدره. يلقي بنفسه على الأرض يمزق ثيابه فوق الفخذ. زوجته تمتنع عن البكاء. تتطلع إليه في خوف. تقترب منه تحاول أن تهدئ من عصبيته. تتوقف حركته المهتاجة فور تمزيقه لثيابه. يتحسس حسنة ضخمة أعلى فخذه بأصابع مرتجفة.

– ما حدش شافها غير أبويا وأمي والداية. أبويا وأمي كلموا الداية لغاية لما ضمنوا سكوتها وفضل السر. قالوا لي ما أقولش لحد.. عرفت من صغري إني مش عادي.. بس حبيت أعيش زي أي حد.

ليلة العرس وقفت العروس بعد انتهاء الحفل كي تعلن عمن أصابها الدور. النساء عُقِدت ألسنتهن. الرجال حدقوا في حامد لا يعرفون كيف يتصرفون. العروس ألقت قنبلتها ثم سحبت عريسها خارجة. حامد يهرول في أثر زوجته التي هرعت نحو المدينة.

في اليوم المحدد لعودة ذلك القادم من وراء الجبل اجتمعوا، وقفوا على أطراف المدينة وسط الصحراء. كانوا قد أمضوا الأيام السابقة في بحث دائب عن زوجة حامد. اختفت وكأنما انشقت الأرض وابتلعتها. حامد كذلك لم يعثروا له على أثر.

يشهقون في ارتياح عندما رأوها قادمة نحوهم لا تعيرهم أي انتباه. تتخذ طريقها بينهم. عيناها جامدتان تحدقان في الفراغ. تتخطاهم. تسير على البساط الممدود في عمق الصحراء. تقف عند طرفه. لا يصدر عنها أدنى حركة.

في ميعاده المحدد وبخطوات سريعة شديدة الاتساع يصل إليهم يقبض بيده عليها. يقربها من عينيه. يحدق فيها طويلًا. تصدر عنه " تنهيدة " هناء طويلة.

يضعها في ثنايا ملابسه. يرص الصناديق التي تبلغ في ارتفاعها ارتفاع بنايات شاهقة فوق بعضها البعض. كانوا قد ملئوها بكل ما أمر به. يحمل الصناديق ويبتعد. عندما تلاشى كنقطة في خضم الكون الواسع تخلصوا من جمودهم. الرجال يسيرون بخطى ثقيلة محنيي الرءوس نحو المدينة. النساء يسرن في تجمعات. يتهامسن فيما بينهن.

– الملعونة... أكيد خضعت له وعملت معاه.. ولا بلاش.

– هو أصلًا كان باين عليها... عينها تندب فيها رصاصة.

– يا جماعة حرام عليكم.

– هي دي تعرف الحرام..... ولا اشمعنا يعني هي اللي طلبها ثاني.....

عندما أراها الحسنة حدقت فيه طويلًا. يلمح في عينيها دهشة وتساؤلًا " كيف أخفيتها عنى طوال هذه المدة ؟! " يتجاهل سؤالها– زوجها لا يخلع ملبسه في حضرها إلا في ظلامٍ دامس– يتحاشى النظر إلى عينيها مباشرة. يسألها أن تقص عليه تفاصيل لقائها بالعملاق. وجهها يحمر، تعرض عنه. يمسكها من كتفها.

– لازم تقولي.. ازاى رغم حجمه الضخم ده بيتعامل معاكم... قولي الصراحة وبالتفصيل.. الصراحة حتى لو كانت تجرح.

– يومها فقت لقيت نفسي في وش راجل من نفس حجمنا... ما فاتش وقت كبير لغاية لما عرفت إن العملاق اللي بييجي من وراء الجبل هو نفس الراجل ده...

عشت معاه أيام وكأني في الجنة حسيت أيامها إني مابقتش أملك من نفسي حاجة وإني كلي ملكه

فضلت كده لغاية لما في يوم فاجأني وأنا في جنينة القصر.. جالي في هيئتة الضخمة.. اتجمدت من الرعب.. مسكني بصباعين.. قربني من عينه بص لى بصة فيها معانى كتيرة.

عندما أنهت قصة اختطافها كانت الخطة قد اختمرت في ذهن حامد سيتسلل في الليلة التي تسبق قدومه إلى الصناديق التي أعدوها له. سيختبئ بين محتوياتها بحيث لا يستطيع رؤيته. هناك حيث سيحمله وزوجته سيخرج

من مخبئه سينتهز فرصة انكماشه لأجل أن يضاجع زوجته حتى ينقض عليه من خلفه ويقضى عليه.

يطلب من زوجته ألا تقاومه بل تتفنن في رسم بسمات الرضا يخرج من مخبئه داخل الصناديق الضخمة. ينظر نحو الأرض البعيدة. كان قد ثَبَّت إلى حزامه حبلًا طويلًا. يربط الحبل حول خصره. يثبت طرفه الآخر إلى أحد محتويات الصندوق الثقيلة يهبط إلى الأرض على مسافة غير بعيدة يلمح القصر الأسطوري الذي حدثته عنه زوجته.

يتجول في أنحاء القصر مسترشدًا بحديث زوجته له. يستدل على الحجرة التي حدثته عنها. بهدوء شديد يدفع بابها. لا يخذله الباب. ينفتح دون أن يصدر عنه أدنى صرير. على الفراش يرى زوجته إلى جوارها يستلقي بشري يماثلها في الحجم. يميل عليها بجذعه. يطبع على شفتيها قبلة طويلة شرهة. لا يكاد يركز بصره على ذلك البشري حتى يراه كجبل ضخم. لا يعرف كيف تتسع الحجرة، تتباعد الجدران، يتمدد الفراش. يتقدم في حذر. يركز بصره على زوجته. من جديد تعود أحجام الأشياء إلى ما كانت عليه. ذلك البشري الذي يماثل زوجته في الحجم قد افترشها. التصقا حتى صارا كجسد واحد. شعر بفوران في عقله. يخطو في حدة نحو ذلك البشري. أثناء حركته تتحرك عيناه لتجعل ذلك البشري في مركز إبصاره. يراه كجبل شامخ لمرة أخرى. قلبه يرتعد في صدره، يتراجع. يحاول كتمان صرخات الفزع حتى لا ينكشف وجوده. زوجته تنظر نحوه. تلمح تراجعه.تصرخ، تقاوم ذلك العابث بجسدها تدفعه عنها. تغرس مخالبها في عينيه ووجهه. ينهض في سرعة عن الفراش. هيئة زوجته المنكمشة على نفسها والرعب الذي ارتسم على وجهها وقدم ذلك

الشديد الضخامة ترتفع لتهوى عليها يهزم الخوف داخله. ينقض على الشديد الضخامة. خصمه الضخم ينكمش فجأة ليماثله في الحجم عندما أصبحت المسافة التي تفصلهما لا تتعدى المتر يوجه له لكمة تطيح به وتدفعه بعيدًا عن زوجته يجرى نحوه، يمسك بتلابيبه ويتبادلان اللكمات والركلات.

كان كل منهما قد مد يديه وكأنها تقبض على شيء غير مرئي، حامد يرفع رجله ويركل الفراغ. الضخم يرتعد جسده. ينحني في ألم وكأن الركلة قد أصابته وكأنها قد وجهت لمن يماثله في الحجم. زوجة حامد تغمض عينيها ثم تفتحهما، تحكهما في قوة. زوجها يوجه لكماته نحو الفراغ. ذلك الشديد الضخامة يفعل الشئ نفسه. كل منهما ينتفض للخلف، ينبجس الدم من شفتيه ووجهه. العملاق يوجه لكمة قوية نحو الفراغ. حامد يندفع للخلف على أثرها. يصطدم بالجدار خلفه تصرخ زوجته في ألم ورعب. حامد ينهض. يتمايل يمينًا ويسارًا. العملاق يتقدم نحوه يهم بتوجيه مجموعة لكمات أخرى. حامد يتحامل على نفسه. يتحرك نحو منضدة خشبية صغيرة موضوعة في ركن الحجرة بالقرب من مكان سقطته. يمسك بمزهرية كانت تعلوها. يقذفها نحو العملاق لا تكاد تعبر نصف المسافة بينهما حتى ازدادت في الحجم جدًا إلى الحد الذي أصبحت تشكل معه تهديدًا كبيرًا للعملاق. ينحني محاولًا تفاديها. لا تفلح محاولته. يسقط أرضًا وقد اندفع الدم من رأسه كالنافورة. زوجة حامد تندفع نحو زوجها، تحتضنه في قوة. تلثمه في سعار. يتحامل على نفسه. يستند إليها. يسرعان بمغادرة المكان.

في أرجاء المدينة ينتشر الخبر سريعًا. حامد وزوجته في طريقهما نحو المدينة. يسيران منهوكي القوى. أهل المدينة يهرعون جميعًا نحو الصحراء يستقبلونهما بالأحضان والقبلات.

– رحت وراه ووراء مراتي.. هناك ضربته ورجعت مراتي. الغريب إني وأنا راجع ماشفتش الجبل. الطريق كان من هناك لهنا صحراء وبس .. الأغرب إن الطريق ماكانش طويل.

بعض الأيدي ترتفع لتشير نحو الجبل. يظهر كنقطة تزداد في الحجم سريعًا. الأرض تهتز من تحتهم، الشمس تغيب. يقف أمامهم ضخمًا كجبل، هادرًا كبركان. كانت المرة الأولى التي يستمعون فيها إلى صوته والذي بدا كعصف الريح: هي فين ؟!

ينتشرون في كل مكان يبحثون خلف الصخور الضخمة، التلال الرملية. يقتادونها أمامهم باكية مرتجفة. يصرخ فيهم صرخة كادت تزهق منهم الأرواح: جوزها كمان..

بلا جدوى أخذوا يبحثون عنه.

الضخم تظهر على وجهه علامات الملل، ينحني، يمسك بزوجة حامد، يضم أصابعه عليها. ينطلق عدوًا نحو الصحراء بعد أن صرخ فيهم مهددًا مطالبًا بأن يجد حامد في موعد مجيئه القادم.

حامد يعترض طريق العملاق. عيناه تلتمعان بالتحدي. كان قد رآه وقد ضم أصابعه على زوجته فانطلق عائدًا.

العملاق يتوقف، يفتح كفه بعد أن لامست الأرض. تغادره زوجة حامد مسرعة. حامد يجرى نحو العملاق القادم من وراء الجبل. في البداية يراه كجبل شامخ مع اقترابه لا يلبث أن يراه في حجم يقارب حجمه.

يتلاكمان. يركل كل منهما الآخر يدوران حول بعضهما البعض. ينقضان ثم يتراجعان. يثيران إعصارًا من الأتربة.

الدهشة الشديدة تبدو على أهل المدينة. حامد وقف على مسافة غير بعيدة من العملاق. الاثنان يوجهان لكمات وركلات نحو الفراغ. شفة العملاق تنشق من تلقاء نفسها. كدمة تصيب عين حامد دون سبب واضح. زوجة حامد تندفع نحو أهل المدينة. تستصرخهم. تسألهم المعونة ينقلون بصرهم بين حامد وبين زوجاتهم. بعضهم يتجه نحو حامد. فوجئوا بزوجاتهم يهرعن ليمسكن بهم. أعينهم تتساءل عن السبب يتلعثمن:" انتم رايحين فين... ماترموش بنفسكم في التهلكة".

يواصلون تقدمهم نحو العملاق ... يلمحهم القادم من وراء الجبل.. تلتمع عيناه.. يوجه العديد من اللكمات في سرعة نحو حامد. حامد يتصدى له... يركله ثم يلكمه في أنفه.. ينتهز العملاق فرصة انكشاف وجه خصمه ويوجه له لكمة قوية تصيب منتصف عنقه.

حامد يتراجع للخلف يسقط على الأرض... يتألم في شدة يحيط عنقه بيديه. في استماتة يحاول الحصول على شهقة هواء.

أهل المدينة يتراجعون.. الذعر يرتسم على وجوههم. زوجة حامد تصرخ في ألم. تندفع نحو زوجها. تعانقه بشدة. العملاق يمسك بها. يتجه نحو أهل المدينة زائرًا. يهربون من أمامه. يهدد بدهسهم. بتحطيم بيوتهم. أثناء توعده لهم لم يتوقف للحظة واحدة عن إملاء شروطه.

أهل المدينة يبكون في حرقة. يدفنون حامد بعد جنازة مهيبة، يتهامسون فيما بينهم عن رجل سيحمل حسنة أعلى الفخذ، سيغير من الرتابة التي تبزغ وتغيب بها الشمس، سيترل من السماء أو سيخرج من باطن الأرض.

رحـــــلة

هزة عنيفة تنتزعني من نومي. أتلفت حولي باحثًا عن مصدرها بعينين ناعستين. أقفز من فراشي كالملسوع. لا أعرف كيف أتصرف. أثبت مكاني..

تشير نحوى ألا أخاف. ترسم على وجهها ابتسامة هادئة. أمسحها بنظري في حذر. جسدي يتحفز لينطلق مبتعدًا عند أية حركة تصدر عنها. كانت قصيرة القامة؛ رأسها ضخم بالنسبة لجسدها الضئيل، عيناها واسعتان طوليتان بانحراف قليل جهة الجبهة، أنفها مفلطح قليلًا، أذناها مدببتان كآذان الخيول. شعرها ناعم ينسدل متموجاً حتى يكاد يلامس كعبيها.

- بالتأكيد لا تعرفني، لكنني أعرفك جيدًا وأعرف عنك كل شيء...

أحمل معي الخلاص وسر الحقيقة الذي يؤرقك...

ألا تصدقني ؟! لماذا لا ترد ؟!

بعد مجهود خرافي، أنجح في التغلب على الجفاف الشديد الذي أعانيه في حلقي. أقول بصوت متلعثم، أستنكر نبرته:

- كل من جرني من الحبل الملتف حول رقبتي قال الكلام نفسه، فما بالى بكائن لا أعرف ماهيته؟!

– لكن بالتأكيد لم يكن أي منهم أختك التي تسكن تحت الأرض... لا يستحق الأمر كل هذه الدهشة، ألا تعلم أن لكل إنسان قرينًا من الجان يعيش تحت الأرض؟ قرينًا يخالفه في الجنس؟ يولد في اليوم نفسه الذي يولد فيه لأب وأم هما قرينا أم وأب ذلك الإنسي؟؟... أعرف أن كلامي يبدو غريبًا لكنها الحقيقة... إنني أختك، جئت الآن كي أنتزعك من حيرتك التي كادت تودي بك... ألا تنظر في المرآة؟! ... لقد هزلت إلى حد يقلق!

في صوتها صدق شديد، أخشى التعلق بآمال واهية.

– ما دمت تراقبينني طوال تلك المدة، لماذا اخترت اليوم بالذات كي تنتشليني من حيرتي؟!

– اليوم، وبعد دقائق من الآن، سينطلق كل راغبي المعرفة في رحلتهم نحوها. أمضينا وقتًا طويلًا جدًا في التخطيط لهذا اليوم، وخشيت إن أخبرتك بالأمر من البداية أن تمل الانتظار وتفقد الأمل.

أطيعها عندما أشارت عليَّ بأن موعد الانطلاق قد حان... أشعر بأني لا أملك المقدرة على الرفض.

وحشة الصحراء الخالية المظلمة التي اقتادتني إليها تتسلل إلى قلبي.. ألمح خيالات لا أستطيع تمييزها جيدًا.. تتحرك بنشاط ، وفي كافة الاتجاهات.. تصفق أمام وجهي فتفتح أمامي أبوابًا لعالم غريب... أرى كل شيء بوضوح، وكأنني أنظر من خلال منظار بالأشعة تحت الحمراء، معد للرؤية الليلية.. تتضح لي ماهية الخيالات.. الملايين من جنس أختي التي تسكن تحت الأرض ينتشرون على مساحة شاسعة متزاحمين.. وكأنه يوم الحشر.. بينهم تجمعات متفرقة من البشر.. أستطيع تمييز بعضهم، رأيتهم مرارًا يطلون عليَّ من شاشة التلفاز، يملئون الجرائد بأحاديث مطولة...

البعض الآخر شخصيات عادية جدًا... رجال، نساء، شباب، عجائز.. الأرستقراطيون وأبناء البلد.. الحكماء والمجانين... أختي تتجه نحو أحد أبناء جنسها، يبدو في هيئته وشموخه كملكهم المتوج. يتحادثان قليلًا. لا يلبث أن يتجه إلى شعبه. يهتف فيهم بلغة لا أعرفها وإن كنت أعتقد أنه كان يبثهم الحماس، فقد ردوا عليه جميعًا بصيحة حملت معاني العزيمة والإصرار.

أختي همس في أذني أن أستعد.. رغم الأنسة التي وجدت طريقها لي مع رؤيتي لكل هذا العدد من بنى جنسي وقد سعوا جميعاً نحو نور المعرفة، إلا أن حديثها يدفع في عروقي رجفة تشمل جسدي كله. الجميع يتحرك في سرعة... أختي تدعوني إلى اعتلاء كتفيها.. لا أعرف ما الذي يجب على فعله بالضبط، تنحني هي، تباعد ما بين ساقيَّ، تجلس على ركبتيها تحتي.. مقعدتي تلامس ظهرها ومؤخرة عنقها. بنو جنسها من الجان يتسلقون أجساد بعضهم البعض... يصنعون العديد من الأعمدة الشاهقة بأجسادهم المتراصة... أختي تنهض واقفة وقد استقررت فوق ظهرها أتشبث جيدًا.. تطلب منى أن أغمض عينيَّ حتى لا أصاب بالدوار.. أطيعها دون نقاش.. أشعر بها وقد بدأت تسلق الأجساد.. الخوف داخلي يزداد، يكاد يوقف قلبي... وطأته تتضاعف مع طرق الذكرى لأبواب عقلي... جدتي تحذرنا دائماً من الجنية التي رزقت أنثى عندما رزقت أمهاتنا بالذكور، تلك الجنية التي تتحين الفرص كي تصرعنا انتقامًا.

تواصل صعودها في سرعة شديدة.. برودة شديدة تتسرب إليَّ.. التنفس يستحيل إلى عملية شاقة جدًا.

– أتدري، بعض هؤلاء البشر الذين جاءوا من أجل المعرفة قد تخلوا عن أبنائهم لملوك الجان ثمنًا لهذه الرحلة.

نصل إلى قمة العمود.. أفتح عينيَّ في فضول.. النظر لأسفل يصيبني بالدوار. أتشبث بها في قوة. أتعلم ألا أنظر إلا بمحاذاتي أو إلى الأعلى.. لا يحيطني إلا الفراغ.. أختي تسألني أن أرهف السمع.. أن أركز في كل كلمة تقال. بينها سأجد ما يبدد حيرتي. تمضي مدة من الزمن، أشعر بها كدهر كامل.. لا أستمع خلالها إلا إلى طنين أذنيَّ.. لا تلبث الأصوات أن بدأت في الظهور في البداية كهمسات بلا معنى تستحيل إلى جمل واضحة ومحددة.

أتجول ببصري بين الأجساد المتراصة فوق بعضها البعض. الجان يبدون في نشاط شديد، لا يكادون يستمعون إلى خبر حتى يتناقلوه فيما بينهم ثم يقومون بتسجيله في صحاف بين أيديهم.. البشر المتناثرون هنا وهناك على قمة بعض الأعمدة يبدون في تركيز شديد.. ترتسم الفرحة الشديدة على وجوه بعضهم عندما تطرق مسامعهم أخبار عن جبل جديد من الذهب سيتم اكتشافه، أو عن تدفق جديد للنفط بين الصخور.. البعض الآخر تلتمع عيناه وهو يتسمع لأخبار الحروب؛ الأرزاق التي توزع بطريقة معينة، الأسماء التي حان موعد رحيلها عن الحياة.. لا تحتفظ ذاكرتي بأي من هذه الأحاديث. أنظر نحو أختي الجنية في ضيق.. هذه المعرفة لا تعنيني في شيء.. لم أسعَ لها ولا أريدها. كانت هي في شغل شاغل عنى. أجدني مضطراً للانتظار. تنتزعني من غضبي كلمات أشعر وكأنني المعنيُّ بها:

– نعجب لبشر تعلّم جدهم كل الأسماء وتعلموها معه وهم في صلبه، ثم يأتون الآن ليتساءلوا عن الحقيقة ويطالبونا بالمعرفة!

يعقب هذه العبارة سيل من كلمات لا أفهم معانيها، بدت وكأنها بلغة سماوية تتخطى معارف البشر... صيحة غاضبة عنيفة أشعر وكأن الكون كله قد ارتج لها.. الجميع يريدون الوصول إلى الأرض بأسرع ما يستطيعون، يهبطون ويقفزون.. أختي تتخلى عني، تنتزعني من فوق كتفيها

كي تسهل حركتها.. أحاول أن أتشبث بأي شيء.. لا أجد ما أتعلق به، جسدي يخالف كل قوانين الجاذبية، يهبط نحو الأرض في رفق. من بعيد ألمح كرات من لهب تتجه نحو الأعمدة المتراصة من أجساد الجان... تحرقهم.... لا تطرق أذنيَّ إلا صرخات الموت، لا يفرق بين بشري وجني... حتى أولئك الذين لامست أجسادهم الأرض وأخذوا يطوونها في سرعة بغية النجاة لم ينجوا من الشهب المتساقطة.. أصل إلى الأرض.. لا أكاد أصدق ما حدث.. أتحسس جسدي.. أتأكد من أن الحياة ما زالت تجرى في عروقي.. أتلفت حولي.. لا تقع عيناى إلا على لهب ورماد ودخان يملأ الأرض والسماء.. لم ينج من كل البشر والجان سوى رجل غيري.. أتجه نحوه.. أجده فاقد الوعي. أهزه.. يتحرك.. ينظر نحوي.. ينهض من سقطته.

– للمرة الثانية أخرج من الرحلة بلا شيء... يقولون أنه في المرة قبل السابقة استطاع ثلاثة الوصول.تستحيل أجسادهم إلى أطياف نورانية ثم تصعد نحو السماء.

لا أفهم شيئًا. أنظر نحوه في عجب. ينهض، ينفض عن ثيابه الغبار..

– في المرة الأولى جاءتني أختي التي تسكن تحت الأرض ولأنني لم أصل لشيء... أعدت الكرة... دفعت كل ما أملك لملوك الجان كي يشركوني في الرحلة ثم لا شيء..

يتحرك فأتحرك معه.. " لا أحد ينجو إلا من سعى لمعرفة ما سعينا لمعرفته.. "

ملامح وجهه... نظرته الخاوية... أحاديثه العجيبة... تدفعني إلى الاعتقاد في جنونه.

– لا تقلق الطريق الأسفلتي على بعد نصف ساعة في هذا الاتجاه... في المرة السابقة أمضيت ثلاثة أيام حتى عثرت عليه.

لن أخبره بما سمعت.. سأحتفظ بسر الحقيقة لنفسي... أجلس مكاني أفكر فيما سمعته. يلتفت نحوي:

– المرة السابقة، ظننت مثلك أنني قد وصلت إلى الحقيقة وجلست مثل جلستك تتملكني السعادة، لكنني لم أكد أفكر فيما سمعت حتى أدركت أنه لا يعني شيئًا في حد ذاته..

الحيرة داخلي تتضاعف.. أبقى جالسًا مكاني... أراقبه وهو يبتعد حتى اختفى تمامًا.

شطرنجية

يضع الرقعة ذات المربعات البيضاء والسوداء أمامه. يمسك بأضخم القطع الشطرنجية، كانت الوحيدة المصنوعة من زجاج يلتمع كالألماس. كما كانت القطعة الوحيدة الثابتة في لعبته هذه.. حفر عليها ملامح وجهه وألبسها التاج الأبيض.. يضعها على المربع الأسود الخاص بها.. يرص باقي القطع.. ظهرن جميعًا من حولها كالأقزام.. لا يكاد يضع القطعة التي تمثل الملك الخصم حتى تسرب القلق إلى نفسه.. بدا كذلك ضخمًا جدًا.. صنعه من الخشب كما اعتاد أن يصنع كل القطع التي تمثل خصومه.. يلتفت بنظره نحو وزيره الواقف بجوار ملكه.. الطمأنينة تعاوده من جديد.. يحمل وزيره وجه أجمل فتاة رأتها عيناه.. صاغها من ذهب خالص.. يخالها تبتسم له. يرد على بسمتها بابتسام.. يشير نحوها بعلامة النصر.

في صندوق ضخم اعتاد أن يضع كل القطع الشطرنجية.. كل منها تحمل وجه أحد سكان المدينة.. لا تكاد تقذف بهم بطون أمهاتهم إلى الحياة حتى يصنع لهم قطعًا تناسب أدوارهم المرسومة لهم.. ينتقى منهم المناسبين لكل مباراة ثم يدفع بهم إلى رقعته.. يرتقي برتبة من منحتهم الأيام أدوارًا أكبر ليلعبوها.. يلقى بمن طلبهم الموت.. يضيف التجاعيد لمن هاجمهم العجز.. يمنح قوة الشباب لمن بثت الليالي فيهم دماه.

على هذه الرقعة أدار عشرات المعارك .. خرج منها جميعًا منتصرًا.. يكتفي دائمًا بأن ينظر للفراغ قليلًا.. لا يلبث أن يعود من شروده بخطة محكمة.. يكتفي بثلاث أو أربع نقلات على أقصى تقدير.. ينتهي بأن

يحاصر خصمه في طرف الرقعة الآخر.. يردد السكون ضحكاته المفعمة بنشوة الفوز...

ينقل "العسكري" أمام الملك خطوتين للأمام إيذانًا ببدء المباراة.. يفاجأ بخصمه وقد نقل نفس نقلته.. رعشة تصيب يده وهى تتجه نحو القطعة التي جاء عليها الدور في اللعب.. لم تتحرك أي قطعة من قطع خصومه ضده في السابق أبدًا.. الرعدة تسرى في جسده كله .. الجيش الخصم يتحرك للمرة الثانية.. ينظر نحو الملك الخصم.. يخاله يتطلع إليه في سخرية.. دخل مصنعه لأول مرة كصبي ضعيف.. يظهر اجتهاداً محموداً.. يترقى في المناصب.. في المعركة الأخيرة التي أدارها على رقعته جعل منه الوزير.. تحرك تماماً كما أمره.. قضى بواسطته على الملك الخصم في معركة لم تبدأ إلا لتنتهي... الآن يأتيه متمرداً.. يريد أن يصنع لنفسه عالمًا خاصًا يديره بقوانينه هو.. لو تركه على هواه لانهارت مدينته كلها.. ملكه الزجاجي يبتسم في ثقة ينحني على وزيره الذهبي.. تنطلق الفتاة بارعة الحسن التي ترتدي حلة الوزير.. تتحرك من خانتها البيضاء تماماً كما يتحرك الفيل " سامبوكسا ".. لا تقف إلا بوصولها إلى آخر مربع تسمح به الرقعة الشطرنجية مع حركتها تلك.. الملك الخصم لا يحرك ساكنًا.. يكتفي بالتطلع مسحورًا إلى عينين فردوسيتين .. الفتاة تتحرك مرة أخرى.. تزيح العسكري الذي وقف أمام الملك وعلى مبعدة منه بثلاث خانات.. تهدد الملك الخصم.. في حبور يصيح رب الرقعة: كش ملك.

الملك الخصم لا يتحرك .. لا يصدر أي أمر لأي من أفراد جيشه.. يتطلع إلى الحسناء بل ويشير لها أن تتقدم.. البرودة تتسلل إلى قلب الملك الزجاجي .. يعمد سريعًا إلى سحب الفتاة.. يعيدها إلى جواره يتنفس بعمق

في ارتياح وقد استشعر أنفاسها تحيط به .. رب الرقعة ينقل بصره سريعًا بين فتاته وبين الملك الخصم.. يحرك الحصان يتبعه بالفيل.. يدفع بعساكره في جحيم مستعر .. الطابيتان كذلك دفع بهما في اشتباك عنيف.. خصمه يتحرك ضده بمهارة فائقة.. يهاجم بضراوة.. يدافع في استماتة.. عقله يبدع عشرات الخطط المركبة.. من خلال ستار من ألعاب كثيرة ينقض كالصقر لافتراس القطع الشاردة.. أسقط في يد رب الرقعة .. قطعه التي استطاع خصمه أن يزيحها خارج الرقعة تفوق مثيلاتها من قطع الخصم بكثير .. يده تتحرك نحو فتاته.. بيده الأخرى يقبض بقوة على يده المنطلقة نحوها.. يضرب على المنضدة في عنف .. بعينين ناريتين يحدق في الملك الخصم.. يشير نحوه بأنه سيفصل رأسه عن جسده.. سيمسك به في كفه، ثم بإبهامه سيكسر هذه الرأس. الملك الخصم يشمله بابتسامةٍ ساخرة واسعة. بغضبٍ هادر يرفع رب الرقعة إحدى قطعه الشطرنجية.. يهوى بها في عنف في موقعها الجديد .. الملك الخصم يصدر أوامره بتحرك إحدى قطعه في هدوء.. قطعته المتحركة تزيح إحدى قطع رب الرقعة الملك الزجاجي يستحيل إلى شعلة من غضب.. يصرخ متوعداً.. يتحرك بجيشه كاملاً منقضاً هادراً.. الملك الخصم لا زال يعالج الموقف بكل الهدوء.. رب الرقعة يراقب كل شيء في قلق.. عيناه زائغتان كل تحركاته حادت عما خطط له.. التجاعيد في وجهة تتضاعف .. صدره العجوز لا يتحمل.. تهاجمه كحة شديدة لم يعهدها من قبل.

اعتاد أن يتجول في أنحاء مصنعه.. يصدر الأوامر.. يتلقى التقارير.. في إحدى المرات يشعر بعينين تتبعانه أينما سار.. أعجبته لعبة التخفي هذه.. فجأة هاجم العينين بشعاع حاد من بصره.. عيناه لم تستطع الاحتفاظ بنظرتها الحادة الثاقبة أمام الضياء البراقة التي طالعتهما .. يقترب من صاحبة

العينين أشبه بالمخدَّر.. كانت ترتدي ملابس عمال مصنعه .. يصدر أمراً مباشراً بانتقالها للعمل مديرة لمكتبه.. كادت أن تقفز لتطبع قبلة – يتمناها – على وجنته.. تتحرك حوله كفراشة نورانية.. تبثه دماء الشباب وحيويته.. قلبه ينبض لها في عنف .. حاول أن يقاوم .. لكنه لم يلبث أن لام نفسه على هذه المقاومة .. إنه يستحقها .. يستحق هذا الجسد النضر وهذه الروح الجديدة المنطلقة.. يمتلكه يقين بأنها لا ترى إلاه.. إنه يستطيع أن يسحر شبابها بسلطته.. بحكمته .. بل وبقوة ذراعية كذلك.

الهجوم الكاسح الذي خرج به الملك الزجاجي ارتد عليه.. يجد نفسه محاصرًا في أقصى الرقعة .. جيش الخصم يحيط به.. أقدامه المتثاقلة لا تقوى على حمله لأبعد من خانة في أي اتجاه .. يكتشف أن كل الخانات من حوله قد حوصرت.. جميعها تحمل كأس الموت والهزيمة.. الملك الخصم يصدر أوامره.. الوزير الخصم يتحرك في شموخ ليقف في المواجهة .. نظرته تحمل تهديدًا بالموت.. رب الرقعة بيد مرتعشة يائسة.. يمسك بوزيرته الحسناء.. ينقلها لتقف أمام الملك الزجاجي تحميه بجسدها .. تدور حول نفسها في رشاقة .. تحرك جفنيها في دلال .. صيحات الموت تنكسر على بسمتها الرقيقة.. الملك الخصم يصدر أوامره بانسحاب الوزير.. الفتاة تدور حول نفسها من جديد.. الملك الزجاجي يأمرها بالعودة إلى أحضانه .. الوزير الخصم يعاود الهجوم .. تغير من اتجاهها في منتصف الطريق.. تعود إلى مواجهة جيش كامل بنظرتها المنكسرة الساحرة .. الملك الخصم يلملم جيشه.. قواته تنسحب جميعها.. رب الرقعة يشعر بالتهديد رغم ذلك.. عيناه تمتلئ بالدموع.. يحرك وزيرته الحسناء.. تهاجم صفوف الخصم بضراوة.. الملك الخصم يتلقى الضربات في سكون .. يعمد رب الرقعة إلى إزاحة كل القطع من حول الملك الخصم حتى يؤجل الضربة القاضية التي

سيوجهها له قدر استطاعته.. الملك الزجاجي يغلق عينيه في ألم .. رب الرقعة يمسح على رأسه في ضيق.. يزفر في عنف .. الحسناء تهدد الملك الخصم.. بصوت متحشرج غير مسموع يصيح رب الرقعة: كش مات.

يحدق في الفراغ.. كان قد لمح في عينيّ شابه المتمرد حبًا مستعرًا.. يسعى للتقرب من فتاته الذهبية.. تصده في استخفاف .. ألبس وزيرته الحسناء ثوب الزفاف الأبيض.. دفعها دفعًا نحو الملك الخصم.. في أثناء توجهها نحو الشاب تلتفت إلى رب الرقعة عدة مرات .. تحمل عيناها عشرات المعاني.. يوشك أن يهرع في إثرها. أن يضمها إلى صدره. أن يطيح به الملك الخصم كذلك بعد أن يصرخ فيه: كش مات.. وقد انكشفت دفاعاته.

رب الرقعة يعود للتحديق في رقعة اللعب بكل الهدوء يمسك بالملك الزجاجي.. يستعمله في الإطاحة بالملك الخصم من فوق الرقعة.. يضع ملكه في منتصف الرقعة حوله كل القطع منكفئة على وجوهها في غير ترتيب .. يمسك بالملك الخشبي الخصم.. يضعه في راحة يده يضم أصابعه عليه .. يهم بأن يكسر رأسه بإبهامه.. بدلاً من أن يفعل أخذت عيناه تبحث بين القطع عن فتاته الذهبية!!

لعبة الحياة

تستجمع كل قدراها في التأثير علي الآخرين ثم تقول:–

"سأحملك إلى كل بارعات الحسن...بإشارة من عصاي السحرية ستخترق كل الحصون و الحجب التي زرعت من حولهن....سترشف معهن من كئوس الحوار....من ستدير رأسك بخمرها المعتقة ستشير لي عليها، ساعتها سأخرج كرتي البلورية من تحت الثوب. سأجعلك تتسلل بنظرك إلى ما سطرته المقادير لكما."

بيدها الصغيرة أمسكت بيدي، تدير عصاها في الهواء عدة دورات وهي تتمتم بكلمات غير مفهومة، ثم توجهها نحوي.

في لمح البصر أجدني بصحبة العجوز الساحرة داخل حجرات من يحاولون حجبهن عن القمر والنجوم حتى لا يغاروا فيأفلوا بلا عودة.

جميعهن كن بانتظاري. يتفنن في إظهار كل مواهبهن في حضرتي..أذوب في سحر أنوثتهن، لكنني دوماً أشير إلى العجوز الساحرة في النهاية إشارة ذات مغزى...يندفعن في بكاء صاخب يقطع نياط القلوب فور انصرافي عنهن...

"هذه غبية...تلك لا تجيد فن الحوار...التي رأيناها في البداية تهز رأسها كثيرًا وهي تتحدث و هذا يصيبني بالغثيان....الأخيرة تلك –يا للخسارة– ستمنحني أطفالًا شائهين... أما تلك التي امتلكت الفتنة الطاغية فأرض بور

لا تهب الحياة...الفتاة التي أدارت رأسي إلى الحد الذي فقدت معه إحساسي بالوجود فستستحيل حياتي معها جحيمًا".

يتجهم وجهها... تأخذ نفسًا عميقًا... تشبك ما بين يديها أمام صدرها.... تتلفت حولها ثم تميل على أذني لتهمس فيها قائلة:-

" رغم أنك تفننت في كسر قلوب عذراواتي إلا أنني سأكشف أمامك سر الأسرار.... سأنفذ بك إلى أجمل زهور البستان... آخر وأبدع ما تحويه جعبتي... يمتد نسبها إلى الشاطر حسن وست الحسن والجمال ... ورثت عنهما كل شيء حتي السعادة التي ظللتهما طوال حياتهما. في لمح البصر ستكون في غرفتها بقصرها الذهبي. "

تمد يدها نحوي وقد ارتسمت علي شفتيها ابتسامةٌ واسعة...تحرك عصاها السحرية في دوائر ثم لا تلبث أن تشير بها نحوي.

تصرفاتي بالتأكيد ستصيبها بالجنون... تنظر نحوي وقد سقط فكها لأسفل. تسألني فقط أن ألقي عليها نظرة... أن أحاورها قليلًا.. كلماتها تحمل رنين النصيحة الصادقة... ليس من اللائق أن نأتي ونذهب دون حتى إلقاء التحية.

"إننا نتعامل مع ملكة متوجة فوق عرش حسناوات الكون.. فتاة لأجلها جمع البشر كل ما لديهم من ذهب كي يبنوا لها قصرها الفريد...لأجل ابتسامة هادئة تنفرج فيها شفتاها عن صفين من اللؤلؤ المتراص يخاطر الآلاف بحياتهم. يذهبون في رحلة مستحيلة إلى قصور ملوك الجان... يسرقون لها العطور التي تستحم بها".

أحاول أن أطيعها أن أنظر إلى وصيفاتها. أن أستثير ذهني ليرسم صورة لمن يسهر علي راحتها فتيات في روعة هؤلاء. أغمض عينيَّ... أسد أذنيَّ... تزفر في ضيق شديد... تتساءل في حيرة:-

" كيف لمحت هذه الفتاة ونحن منطلقان بسرعة الضوء في السماء من كل هذه المسافة؟!"

تمسك بيدي مرغمة... تحرك عصاها السحرية في دوائر حركة سريعة عنيفة. بنفس العنف والغضب توجه عصاها نحوي.

ندخل إليها عبر النافذة المفتوحة...القمر يلقي بشعاع من ضوئه على وجهها، كأنما يسهر على حمايتها.. أغار عليها من ضوء القمر فأغلق النافذة. أضغط زر الإنارة؛ الضوء المبهر المفاجئ ينزعها من سباقا...تنظر إلينا في حيرة لم تلبث أن استحالت إلى ابتسامة رقيقة شملت وجهها كله...أذوب في ابتسامتها....الساحرة العجوز تتحرك في سأم...تجلس في نهاية الغرفة...تتطلع إلينا بعينين ذابلتين.

هذا هو سر ابتسامتها إذًا...كانت تحلم بي وبرفيقتي العجوز...يبدو أن ملائكة الأحلام العابثات قد همسن في أذنها بسري.

أجيب بسمتها بابتسامةٍ أوسع؛ أنهيها بقبلة أطوحها في الهواء نحوها. تمد ذراعها أمامها. تبسط كفها وكأنما تمنع قبلتي من الوصول إلى وجهها... إشارتها تحمل معنى لا تتسرع، ففارسي الذي تمنيته سيأتيني على جواد أشهب سينتزعني بذراعٍ واحدة من فوق الأرض ليلقي بي فوق جواده ثم يصعد بي إلي السماوات العلا.

أثبت مكاني.ألمح نظرة شماتة ساخرة في عين العجوز... أتحرك في اضطراب نحو العجوز. تهم بمد يدها من أجل أن تقبض على يدي لتنطلق بذلك المخرج بعيدًا. أغير اتجاهي في اللحظة الأخيرة... أعود إلى الفتاه الجالسة علي حافة الفراش. تستقبلني بنفس الابتسامة الهادئة الواسعة. لا

يتملكنك الغرور فما عدت إلا لأعلمك موقعك في قائمه الفتيات المعروضة عليَّ.

أفاجأ بكل الكلمات والسيناريوهات التي أعددها وقد تبخرت من ذهني... جسدي يشرع في تنفيذ خطة أخرى دون أن يستشيرني...أقف أمامها في شموخ.أضرب بقبضة يدي على صدري، أمسك رأسها، أدفعها للتحديق في ملامح وجهي...أضمها في قوه إليّ حتى بات قلبها ينبض في عروقي. وقلبي ينبض في عروقها. ابتسامتها تتسع لتستحيل إلى ضحكة عالية صافية ...لا تلبث أن تبتلع الضحكات.. تضع يدها علي كتفي. تدفعني للجلوس أمامها علي حافة الفراش. تحدق في عينيَّ.

إذًا تريدين أن نحيلها لعبة.حسنًا سأريكِ مقدار ما أتمتع به من إرادة... سأجبرك أن تخفضي بصرك مرات عدة، في حين سأحتفظ أنا بعينين براقتين مفتوحتين عن آخرهما. عيناي اللعينتان تحاولان التمرد على إرادتي، لكن فليطمئن قلبي. فها أنا ألمح اهتزازًا بسيطًا في عينيها. نكسر أنظارنا في الوقت نفسه... أكاد أقسم أننا فعلنا ذلك عن عمد. كان في الإمكان أن نستمر لمدة أطول... نرفع أعيننا مرة أخرى...كل منا ينظر إلي صورته المنعكسة في عين الآخر... هذه المرة النظرات تحمل معاني مختلفة كل الاختلاف... أيدينا تتحد في عناق طويل حار.

العجوز تنهض... تخرج كرتها البلورية من تحت الثوب؛ تقفز كالملسوعة هتف:-

"انظر يا بني... انظر..."

لا مجيب... تلتفت إلى الفتاة

أنظري... أنت ... انظري..."

تسكت قليلًا. لا تلبث أن تعاود الهتاف مره أخرى بصوت أعلى، وقد بدأت في هزنا:-

" يجب أن تنصتا لي... يجب أن تنظرا إلي الكرة البلورية..انظرا إليها وأطيعا جدتكما العجوز الطيبة.....".

عطر السعادة يخدر أوصالنا... يدفع ابتسامة رقيقة للارتسام علي وجهينا. لا تلبث أن تستحيل إلى ضحكه عالية صافية نسمعها في آذاننا كموسيقى تعزفها الملائكة...

العجوز لا زالت تهزنا... تصرخ في آذاننا... الموسيقي الملائكية تعلو وتعلو حتى أخفت الصرخات التحذيرية تمامًا.

المصاغ



الميكروفون أعلى مئذنة الجامع نقل تسليمة ختام صلاة الظهر، تمتمات التسبيح عقب الصلاة، نحنحة الشيخ الإمام، صوته معلنًا الخبر. تذكيره بحدادٍ أربعين يومًا، يحرم فيه ارتداء الذهب.

الكلمات رنين يعمر الشوارع، لا يتركها إلا وقد اكتست بنساء مرتديات السواد.

كأمواج البحر يقصدن بيت الحاجة فاطمة.

من حولها جلسن في حلقات. صدورهن عامرة بصرخات يقذفنها مواساةً بين الحين والآخر.

أعناقهن، سواعدهن، سيقانهن خالية من كل أثرٍ للمعدن النفيس، حتى الست محسنة نزعت من بين أسنانها الناب الذهبي. تركت مكانه فجوة سوداء قابضة.

الحاجة فاطمة تتهادى في الطرقات. تنقل أرجلها فيترجرج الشحم المكدس على جسدها. يتوالى ارتفاع إليتيها وانخفاضهما في تبادل كبطةٍ متكاسلة.

الذهب سوارات تلتف حول ساعديها، تعلو لتبلغ مرفقيها، تحرمهما الانثناء. السلاسل تدفع بجذعها للأمام، تقاومها بزيادة توتر عضلاتها فتخترق ظهرها ورقبتها الآلام. في أصابعها خواتم، بعضها حُلّيَ بفصوص

شاع أنها تعود للعائلات المالكة. شحمتا أذنيها متهدلتان تحت ثقل قرطيها الضخمين. خلخالها رنين ذهبي يفضح ساقين منعمتين بملمس النفيس.

الذهب بريق، سيد يقود عبيده العيون، يتبعونه أينما حل، سحر وتمائم أزلية.

- ربنا يصبرك يا حاجة فاطمة.

- والله أول ما عرفنا جينا على طول.

- بس حصل إزاي ده وإمتى؟!..... ده انتي يا كبدي كنتي لسة لبساه امبارح.

- مقدر ومكتوب.

الحاجة فاطمة وبأنفاسٍ متقطعة ناحبة:

- ده برضه العشم.

النظرات نغزات حادة تفتك بلحمها العاري من كل درعٍ ذهبي.

المحقق يزيح البلاطات المخلخلة، تفصح عن رمال، نمل يتحرك بلا هدف في ذعر لانكشاف ستره.

الذهب لا يستكين إلا في خزائن تحت البلاط. عادة تتوارث عن الأجداد. تسهل عمل اللصوص.

عينا المحقق تبرقان. تخترقان الجميع.

البيت دومًا بابه مفتوح. يقبع في الطابق الأرضي. القطط تجول في أنحائه. اللص قد يدخل. ينتظر لساعات تحت السرير. ينشط ليلًا ليختبر البلاط.

- الدنيا ماعدش فيها أمان يا حاجة.

على "الأنتريه" المتهالك في شقة الحاجة اجتمعوا.

الحاجة فاطمة تركت الغليان قليلًا ثم صرخت في الجميع:

- لما تبقوا تعدموني ابقوا اورثوني بالحياة يا ولاد الحرام....

ولداها الصغيران جذبا زوجتيهما. دفعا أبناءهما أمامهما. انصرفا بلا كلمة وداع.

ابنتها الكبري ضمتها إلى صدرها. دفعتها الحاجة ثم ارتمت على كرسيها، تبكي في نشيجٍ مكتوم، تقطعه بشكاوى ناحبة ترفعها نحو السماء.

الابنة الصغرى-المقيمة مع الحاجة ولم تتزوج بعد- كتمت أنفاسها، جالت بنظرها في الجميع، تسللت على أطراف أصابعها إلى الداخل.

الحاجة تقرب ابنها الأكبر منها. لم يتحرك لسانه بكلمة وقت الشجار. بقي على الحياد.

همس في أذنه:

- شفت اخواتك بيعملوا إيه؟!.... يرضيك ده....

تتأمل ملامحه ثم تواصل حديثها:

- البهوات الصغار عاملين رقبتهم مداس لمراتهم.... ماهم تربية مرة.... عاوزين يبيعوني دهبي علشان يعملوا مشاريع خسرانة.

والهانم التانية أختهم عاوزة تورثني.... بتقول الدهب يتقسم... عاوزة تلبسه وتتمخطر به على حياة عيني.... السنيورة.... بنت بطني....

مالك ساكت ليه؟! ما بتتكلمش....

عمومًا أنا طلبتك النهاردة مخصوص علشان أعرفك كل حاجة.... الكلام ده مايخرجش ما بينا وإلا هنتفضح.... حتى اخواتك لازم ما يعرفوش.... مراتاهم هيشمتوا فينا ويفضحونا.....

الدهب اللي جوا كله قذ رة....

الدهب اتباع علشان أربيكم وأخليكم رجالة بشنبات وهوانم تتسابق الرجالة عليهم.... أبوكم ما سابليش غير الدهب.... و كان لازم أعلمكم وأجوزكم......

تعالَ معاية شوف .....

تسحبه من يده إلى حجرتها.

ابنتها الصغري تقلد مشيتها. جسدها مغطى بالمعدن اللامع. البلاطات التي تحوي السر في غيرأماكنها. الفتاة تتهادى قليلًا متمايلة، متناغمة مع صوت وإحساس النفيس.

تقفز سريعًا إلى الجانب الآخر من الحجرة. تقلد نظرات الجيران، همساتهن، غمزاتهن.

تقلد سهام الشباب، مداعباتهم.

تندفع إليها الحاجة فاطمة، تهوي عليها بذراعها الممتلئ. الأخ يحول بينهما. الأم تضغط على أسنانها. ذراعاها يتحركان كالأنشوطة. يتصيدان شعر الصغيرة. الصغيرة تتحلل من اللامع. تتقافز جارية من الحجرة.

- سيبني عليها الفاجرة.... شايف البنت وعمايلها ولسة ما طلعتش من البيضة.

حُفِظ التحقيق في القضية.

لا أمل في عودة البلاطات لمكانها.

لمعان النفيس ضياء ذهبية خرجت للطريق بعد مدة الحداد.

الابن الأكبر اختفى لأيامٍ ثلاثة. الميكروفون أعلى المئذنة نقل صوته عقب عودته، إعلانه عن زفة تخرج من بيتهم. تجوب الطرقات ثم تعود للبيت.

الحاجة فاطمة تتوسط الزفة. عاد لها امتلاء جسدها، تورد خديها، ابتسامتها الواسعة. الذهب فيض، جسدها غارق فيه.

الإخوة والأخوات اجتمعوا في صالة شقة الحاجة. الفراش يضم جسدها المريض. حرَّمت علي نفسها الخروج.

الأخوة والأخوات غلّقوا الباب عليهم. كلامهم همس.....

سيشيعون أن لهم أرضًا في الريف. أخاهم الأكبر سيغيب لبيعها. بثمن البيع سيشتري الذهب الأغلى.

عاد الابن لأمه بالقشرة.

القشرة بريق يتوسط الزفة. التهاني تحيط بها.

الموسيقى تعزف سلامات لمن رقصوا أمام الزفة أيديهم تحتضن أموال النقوط.



الخير يقرر – أخيرًا – أن يربح



الرياح تحمل للخير من الأنباء ما كاد يصيبه بالجنون. يقرر النزول من فوق أعلى الجبال، متجاهلًا الاتفاق القائم والمعمول به منذ الأزل.

لا يكاد يخطو أولى خطواته على الأرض المنبسطة، حتى فوجئ بمن يعترضه.

– ما الذي دفعك للنزول؟!

– ما حكم به الأقدمون لا ذنب للمحدثين فيه، كي يتلظون بناره.

– وما الذي تريده إذًا؟!

– فلنقصد أحكم حكماء هذا الزمن.

تزامن حلول الإنسان ضيفًا على الأرض، مع خلق الخير والشر. تشكلا داخل رحم الحياة من نطفةٍ واحدة. خرجا للوجود توأمين متماثلين.

لا يكاد الخير ينهي موعظته – التي جمع الناس لها – حتى فوجئ بالشر يقف من خلفه.

– الحياة لم تعد تتسع لكلينا. أحدنا يجب أن يعتزل الناس ويسكن أعلى الجبال للأبد.

يتساءل الخير:

– ما الذي تقصده؟!

- أقصد أن البشر يجب أن يختاروا أحدنا.

- البشر ليسوا مؤهلين لذلك بعد.

- إذًا فلنقصد أحكمهم ليختار من بيننا.

لا يستطيع الخير أن يخفي ابتسامة ظفر ارتسمت على وجهه، عندما هز الشر رأسه موافقًا على الحكيم الذي اقترحه.

الخير ينتفض محتجًا صارخًا بأن كل ما يقوله الشر أكاذيب باطلة.

- سيدي. إنه أنا الخير...أنا من يمشي بين الناس بالبر...

- لقد أصبتماني بالحيرة الشديدة...كلاكما معسول القول... تحملان الملامح الطيبة نفسها... وكذلك فكلاكما يدعي أنه هو الخير، وأن رفيقه هو الشر.

الحكيم يمس لحيته. يحدق في الفراغ.

- ستغيبان عني يومًا وليلة، ثم تعودان بقرابين تقدمانها للسماء...من قُبِل قربانه، فهو الخير، وسأحكم له...ومن رُدت عليه عطيته، فلا سبيل أمامه إلا النفي.

أمام الحكيم جلسا. كل منهما يرفع أكف الضراعة نحو السماء، يسأل خالق الكون أن يقبل منه قربانه.

كان الخير قد غاب ليومٍ وليلة. عاد يجرجر أقدامه من التعب والوهن. قدَّم للحكيم إناءًا مملوءًا باللبن، كان قد عمل على رعي أغنام أحد الأثرياء مقابله. يشير الحكيم بسبابته إلى احدى الأشجار على مبعدةٍ منه.

- ضعه هناك تحت الشجرة، وتعالَ اجلس جواري.

لا يكاد الخير يتخذ مجلسه، حتى لمح الشر قادمًا في نشاط، يسوق أمامه قطيعًا كبيرًا من الأغنام.

– اترك قطيعك هناك على مبعدة من إناء اللبن، وتعالَ اجلس جواري.

كانوا جميعًا في انتظار علامةٍ من السماء.

أحد العجائز يمر، يسير في صعوبة، محني الظهر، متكئًا على عصاه. يقترب من إناء اللبن. ترتسم على وجهه ابتسامة واسعة. يمسك به. يرفعه إليه. يأتي على كل ما فيه. يتجشأ، ثم يواصل سيره.

الخير ينظر إلى الحكيم في تساؤل. لا يلتفت الأخير إليه.

لا يمضي الكثير من الوقت حتى أبرقت السماء. شعاع البرق يضرب الأرض. تعقبه كرة ضخمة من اللهب، تلتهم الأغنام في لمح البصر. لا تخلف إلا رماد.

الشر يقفز صارخًا شاخصًا ببصره نحو السماء.

– العلامة...إنها العلامة...النار هبطت من السماء لترفع أغنامي...أحمدك يا إلهي.

الحكيم يمس لحيته. ينظر إلى الفراغ، ثم ينطق بالحكم.

الخير والشر يسيران متجاورين. يكسر الشر حاجز الصمت قائلًا:

– لقد وافقتك على كل ما طلبت، فقط حتى تتيقن من حسن نواياي، رغم أننا قد حسمنا الأمر منذ زمنٍ طويل للغاية.

يلوح لهم الحكيم هدفهم، يجلس أمام البحر، يحدق في أمواجه حينًا، ويكتب في أوراقٍ بين يديه حينًا آخر.

– سيدي الحكيم...جئناك كي تفصل بيننا...أنا الخير، وهذا الشر...أحدنا يجب أن يمكث بين الناس، والآخر يعتزلهم.

– إنه كاذب...إنني أنا الخير، وهو الشر.

الحكيم يمس لحيته، ينظر إلى الفراغ.

– هل تريان ذلك القارب هناك؟...من ساعدته السماء في الوصول إليه أولًا، ثم قلبه بمن فيه، سأحكم لصالحه.

لا يكاد الحكيم ينهي حديثه، حتى انطلق الشر بأقصى سرعته تجاه القارب. الخير يتردد قليلًا. يمعن الفكر. غايته النبيلة في السكن بين الناس، تبرر له الإضرار بذلك الجالس في القارب. سينقذه قبل أن يغرق، ثم يعوضه عما ألم به.

الخير ينطلق بأقصى سرعته. يقفز إلى الماء. يدخل سباقًا للسباحة مع الشر. الشر يصرخ من الألم، يمسك بساقه. يتوقف عن السباحة. يحاول العودة إلى الشاطئ. الخير يتعداه. يواصل تقدمه نحو القارب. يقلبه بمن فيه.

أمام الحكيم وقفا تقطر منهما المياه. ينهض الحكيم ليقف في مواجهتهما. يقول بصوتٍ هامس:

– الخير لا يمكن له أن يرتكب الشر...حتى وإن حاول فالسماء لا بد أن تحول دون وقوع ذلك.

يجلس. يمس لحيته. يحدق في الفراغ، ثم ينطق بالحكم.

مساكة الملك



يتعقب خطواته. يجده يدلف إلى تلك البناية المهجورة التي اعتادوا الاختباء بها. تبرق عيناه قبل أن يحذو حذوه و يدخل في أثره. ابتسامة ظفر ترتسم على شفتيه و قد استشعر رائحة النصر و هي تداعب أنفه. يصعد السلم من خلفه عَدْوًا. يتوقفان أمام النافذة الموجودة في الحائط المحيط بالسلم بين الطابقين الأول و الثاني. يتطلعان منها إلى ساحة اللعب و قد حاولا بقدر الإمكان أن يجعلا رأسيهما غير مرئية... ينتظران أن يُمسك جُل اللاعبين إن لم يكن جميعهم كي ينزلا السلم عَدْوًا. ينضمان في الخفاء إلى اللعبة القائمة في مراحلها النهائية حتى يحصدا الفوز.

لعبة رائعة تلك التي اعتادوا ممارستها، لعبة يتعقب فيها أحد اللاعبين الباقين، يحاول أن يُمسك بهم. من يقع بين يديه ينضم إليه بعد أن يصرخ في الجميع و هو ممسك إياه: شاهدوني...فيرد عليه المحيطون: شهدنا لك....، آخر الممسوكين يصبح الملك، يجلس على العرش. يتوج آمرًا... ناهيًا... بإشارة منه يختار من عليه أن يهرع في أثر الباقين و بإشارة أخرى يختار ذلك الذي عليه أن يُمسك بكف من وقع عليه الاختيار، يضربها براحة يده صائحًا : سندق ... بندق ... عَمِّر ... طيروا ... قفش ... إيذانًا بانطلاقه في أثر الجميع.

اليوم سيصبح الملك، سيأمر و على الجميع أن يطيعوا، الكل سيقف خاشعًا أمامه حانيًا رأسه في عينيه توسل و رجاء ألا يختار كلاعب يهرع في

أثر الباقين دون فرصة في الفوز و ارتداء التاج، أو أن يختار كمعطٍ لإشارة البدء فيصبح أول الممسوكين بفرصة ضئيلة جدًا في الهروب.

معظم اللاعبين أُمْسك بهم... لحظة التنفيذ اقتربت جدًا... يشعر بقلبه يخفق في عنف، يضع راحة يده اليمنى على صدره و كأنما يحاول أن يتأكد من ثبات قلبه في موضعه. .ضطرابه هذا يعيد عليه ذكرى أول لقاء جمع بينهما. يومها قرر تحدي سلطة والديه. سيهبط إلى الشارع يلعب مع الأولاد. لن يكتفي بمراقبتهم من فرجة النافذة. سئم العلبة القطيفة المرصعة من الخارج بالذهب و التي يحتفظون به فيها كأغلى جوهرة زينت صدر الحياة.

كان مدركًا لسر تخوفهم من هؤلاء الملاعين كما يسمونهم كما كان موقنًا من نجاح خطته، ينفجر في بكاء شديد... عيناه الحمراوان، صدره الذي لا يتوقف عن الارتفاع والانخفاض، محاولاته الدائبة للحصول على شهقات لا ترضخ له في سهولة. في النهاية يهرع إلى سلم العمارة في فرح... لا يهمه كثيرًا أن تقف له أمه في النافذة طوال مدة تواجده في الشارع، تأمره ألا يغيب عن نظرها فلها الحق أن تخشى على طفلٍ مُنح لها بعد طول انتظار و بعد أن فقدت في سبيل قدومه طفلين آخرين وعدة ألاف من الجنيهات. يجلس على مقربةٍ منهم ، يخشى أن يعرض الانضمام إليهم فيرفضوه، نظرات أمه الناقمة من فرجة النافذة تدفع في عروقه الكثير من الشجاعة، " هذه المعركة كلها من أجل أن تغير مكان جلستك ومراقبة العيال من البلكونة إلى الرصيف المقابل لهم؟!"، يتوجه نحوهم.... " ممكن ألعب معاكم ؟"... عيون كثيرة يشعر بها تمسحه من شعر رأسه حتى أظافر قدميه... يلمح بعض السخرية في النظرات، كان الوحيد الذي وقف إلى جواره... مد يده إليه مصافحًا... قَبلَه لاعبًا جديدًا بل وكسر القانون الخالد في اللعب_من انضم مؤخرًا إلى اللعبة فعليه يكون الدور في الجرى خلف الجميع_ من أجل عيونه...

همهمات كثيرة تنم عن الاعتراض... كيف يكون آخر من جاء و لا يهرع في أثر الباقين... نظرة واحدة من عينيه الحادة كانت كافية لإقناعهم بكل شيء و إخفاء كل شيء عن ذلك الوافد الجديد... إن جرى خلف الجميع فلن يمسك بأحد... إنه الأصغر سنًا... الأضعف عودًا... بل و سيكون بطيئًا جدًا..... فرحة غامرة تجتاحه فور انضمامه للعب... يمعن في الابتعاد عن ذلك الذي سيجري محاولًا الإمساك بالجميع فور إعطائه إشارة البدء... يبتعد ويبتعد. كان أبعد المتسابقين بمسافة كبيرة عندما بدأت المنافسة. ذلك الذي يجري خلف الجميع يتجاهل الكل... حتى هؤلاء الذين وقفوا بمقربةٍ شديدةٍ منه في تحدٍ واضح... حدد هدفًا واحدًا و خرج في أثره... الوافد الجديد لا يجد ما يفعله غير أن يجري محاولًا الابتعاد... المسافة بينهما تقصر سريعًا رغم محاولات الوافد الجديد المستميتة أن يزيد من سرعته فوق أقصى ما يستطيع... بطله المنقذ يظهر له... جاء كي يكمل جميله عليه و كأنما أصبح من الواجب عليه حمايته ما دام قد قبله لاعبًا جديدًا. يأتي من خلف ذلك السهم المنطلق... يجذبه من ملابسه بعد أن أصبح إلى جواره في تحدٍ و تعريض واضحين. يسبقه بكل سهولة... يقف أمامه متحديًا... لم يكد ذلك السهم المنطلق يمد يدًا نحوه حتى راوغه في مهارة، ظلا هكذا لمدة يدوران حول بعضهما البعض، يظهران الكثير من المهارة في أساليب الكر والفر، لكن ذلك المنطلق في أثر الجميع لم يلبث أن حدد هدفه من جديد و هرع في أثر ذلك الذي يحاول الهرب بأقدامٍ لا تقوى على حمله من الإثارة... يقترب منه كثيرًا... الوافد الجديد ينظر خلفه، فوجئ بوجهه أمام عينيه، يصرخ في رعب صرخة حادة طويلة... العقاب ينقض على حمامته المسالمة..... يمسك بخناقها.

صديقه يعلمه أن وقت النزول قد حان، لقد أمسكوا بالجميع ولم يبقَ غيرنا، يترك صديقه يهبط السلم عدوًا، يتظاهر بنزوله في أثره، يقف في النافذة مظهرًا نفسه، لو رفع أحدهم بصره لرآه، لكنهم كأنما يتعمدون ألا يروه، يكاد يصرخ فيهم معا"ا عن مكانهما. يعمل الفكر سريعًا... يلتقط قبضة من الأتربة و الحصى الصغير المفروشة به أرض البناية غير المأهولة... يلقي به على رأس الواقفين في الأسفل يبحثون عنهما.

- فوق أهم... برضه لسه بيخموا... ماينفعش الكلام ده... إحنا قلنا إن ماينفعش حد يستخبى في العمارات.

يراهم يهرعون نحو باب البناية، يطلق لساقيه العنان، يتخطى درجات السلم بقفزات سريعة متتالية، يصل إلى مسامعه أصوات خطوات الصاعدين في أثره، بالتأكيد صديقه و من خلفه باقي المتسابقين، يزيد من سرعته أكثر وأكثر فبوصوله إلى الغرفة فوق السطوح سيتوج ملكًا رغم أنف الجميع.

يتعمد الالتصاق بملاكه الحارس، يستشعره كحلقة الوصل بينه وبين ذلك العالم الجديد الذي انفتح عليه فجأة، يستشعره أيضًا كصمام الأمان الذي يكفل له الحماية في ذلك العالم.

- تعالَ نستخبى في العمارة المهجورة هناك دي. ينظر إليه في عجب.

- يا عبيط... تعالَ بس علشان نكسب.

يتبعه و قد إمتلأ إعجابًا بذلك الذي يفتح أمامه أبواب الفوز على مصراعيها، ذلك الذي كان يصرخ في حماسة بكل قوانين اللعب و ها هو ذا يكسرها من أجل خاطر عيونه، سيختبئون حتى تحين اللحظة المناسبة فيتسللوا من خلف ظهور اللاعبين و ينضموا مرة أخرى إلى اللعب و ساعتها سيصبح أحدهما ملكًا و الآخر وصيفه.

يلمحونهم و هم واقفون في النافذة، لا سبيل إلى الهرب، أصوات خطواتهم على السلم تقترب، يقف مستسلمًا ينتظر وصولهم ، بطله يتركه، يهرع نحو السطح، يسأله :-" إنت رايح فين؟!".. "بتجري ليه ناحية السطوح؟!"... "مافيش فايده". يسأله بصوتٍ أعلى:" إنت مابتردش ليه ؟!"... "آجي وراك ؟!"، أذنه لا تتلقى إلا وقع أقدام أولئك القادمين من أجلهما و وقع أقدام بطله المبتعدة، يمسكون به، يجرون نحو ذلك الذي هرع نحو السطوح، يهنئونه بالفوز،" أنت الملك ،بس إحنا مش قلنا ممنوع العمارات" .

لهذا لم يرد عليه، لم يرده أن يجري في ذيله. يومها بدأ ذلك الشعور داخله في النمو و أخذ يكبر و يكبر حتى أصبح إصرارًا على تحقيق لقب الملك. ربما كان صديقه الأقوى و الأسرع و الأذكى، لكنه بالتأكيد لو بقى في ميدان اللعب لتضاءلت فرصه كثيرًا خاصةً إذا بدأ في مراوغة لاعبين أو أكثر و قد بدأوا في تضييق الخناق عليه ككماشةٍ محكمة.

يبلغ السطوح، وقع الخطوات خلفه يعلو أكثر و أكثر معلنًا اقترابهم رويدًا رويدًا، يدخل إلى الغرفة التي تحتل نصف مساحة سطوح البناية، يغلق بابها من خلفه، يلقي بثقل جسده عليه حتى لا ينفتح، يدفع الهواء بعنف نحو رئتيه محاولًا سد حاجة جسده المتعطش للهواء، يشعر أنه بشهقتين قد يستهلك كل الهواء بالحجرة. يحاول جاهدًا تنظيم تنفسه و الإصغاء إلى وقع الأقدام المتصاعد. يدٌ متلهفة تطرق الباب في عنف، صوتٌ غليظ يطلب منه أن يفتح، دفعات قوية، يبدو كأن ذلك المتلهف إلى الدخول يلقي بجسده كله على الباب في ضرباتٍ متلاحقة مفاجئة، الباب يتراجع قليلًا، الأمل في النصر القريب يدفع في ذلك الواقف خلف الباب قوةً عظيمة تدفعه إلى التشبث بالباب و بالأرض في محاولات مستميتة كي يمنعه من أن ينفتح، ييأس من فتحه، يجري مبتعدًا، يسمع خطوات أول من

وصل من اللاعبين و هو يعبر من أمام الباب الذي أحكم إغلاقه نحو صديقه، يتوقع صيحة شاهدوني... فيعقبها بخروجه صائحًا شاهدنا لك ليتسلم حلة الملك، لكنه بدلًا من ذلك لا زال يستمع إلى وقع الخطوات والتي بدا كأن أصحابها يتحركون في دائرة حول شيء ما... كيف أغفل هذه النقطة المهمة؟!، كيف سى أمر هذا الهيكل الخشبي الملقى بإهمال في منتصف السطوح؟!، الآن سيمضيان شوطًا طويلًا من الدوران حول هذا الهيكل... ما إن يأته من جهة حتى يهرع صديقه للجهة الأخرى، أصوات باقي اللاعبين تعلن اشتباكهم في الصراع الدائر من أجل الإجهاز على صديقه تبعث فيه الطمأنينة.

طرقاتٌ على الباب... أصوات كثيرة تدعوه للخروج... أصبحت الملك للمرة الأولى... اخرج كي ترتدي الحلة و تتسلم التاج... اخرج كي تجلس على العرش وتحرك ما تشاء كما تشاء... يندفع خارجًا... الفرحة تجتاحه... الابتسامة على شفتيه تتسع لتشمل الكون كله... يشعر بكل المخلوقات تتراقص على نبضات قلبه المفعمة بالنشوة، يتجه ببصره نحو صديقه يتوقع رؤيته محاطًا باللاعبين و قد سقط بين أيديهم في عينيه انكسار. لا تتاح له فرصة إلقاء نظرة نحو صديقه... يتلقفه أحد اللاعبين بالأحضان يصيح: شاهدوني.

يرد صديقه و معه كل اللاعبين: شاهدنا لك.

ضحكاتهم الصافية تكاد تهز الكون كله. دائمًا يضحكون هكذا عندما يسقط أحد المتنافسين بين أيدي الخاسرين الذين يحاولون تصفية الجميع من أجل استخراج الملك من بينهم، لكنه يشعر بالضحكات هذه المرة أعلى نبرةً، يدرك كل شيء يدركه دفعةً واحدة، صديقه لم يُمسَك بعد، ما زال محتميًا بالهيكل الخشبي، لم يطوقوه ولم ينقضوا عليه كالكماشة، يلوم نفسه كيف لم يستنتج الأمر؟!

كيف لم ينتظر كلمة شاهدوني كي تؤكد له ما تخيله. يريد أن يصرخ فيهم أن يتهمهم بتعمد الإمساك به و الإبقاء على ذلك الذي اعتاد الحصول على اللقب. يكتم في نفسه، يفصل كل مشاعره عن ملامح وجهه، يقابلهم بوجه كتماثيل الشمع بلا إحساس يحاول أن يزينه بابتسامة باردة لا حياة فيها.

إمساكهم به دون صديقه كان من وحى الصدفة و كذلك اختباؤه في الغرفة، فخوفه هو ما دفعه إلى إغلاق الباب حتى في وجه صديقه، يرتضي و أصدقاؤه هذه التفسيرات التي أجمعوا عليها، ينطلق معهم، يتوج الملك الذي اعتاد التتويج، يعلم أن العقاب ينتظره. بالتأكيد سيختاره كأحد الضحيتين_إما ان يهرع في أثر اللا عبين أو أن يعطي إشارة البدء_ حتى لا يجد فرصة للمنافسة على التاج، بيده أن ينصرف غاضبًا، يقرر أن ينتظر، أن يركز هجومه على الذي اعتاد التتويج.

أهداب طويلة في عناقٍ والأرض



علي الحشائش الندية يستلقي. عيناه معلقتان بالسحاب. أذناه مغمورتان في إيقاعٍ هادئ خلفيته رقرقة الماء.

- آمنت فاستحققت الفردوس.

- ما عبدت يومًا لأجلها..... عبدت لأني أحبه.

فرشاته تعابث اللوحة البيضاء. تمنحها خطوطًا وألوانًا. أمامه جلست زبونته. أنفقت العديد من الساعات صامتة.

تتطلع إلى اللوحة من فوق كتفيه.

اللوحة باحت بسرها. شجرة ضخمة الجذع تقف إلى جوار السور الحديدي للنيل. على صفحة الماء تتموج ملامح ناعمة لفتاةٍ شاردة.

يفيق على ضربة من حقيبة يد زبونته لوجهه. الفتاة في اللوحة لم تكن لتقترب من ملامحها.

الشجرة متشابكة الأغصان، ضخمة الجذع، عن أغصانها تمتد أهداب نحو الأرض.

على السور الحديدي الذي يضم النيل جلس قبالة الشجرة. إليه ضم اللوحة. عيناه تمسحان الطريق. تترصدان بزوغها.

تكبيرات الذكر تحيطه، تجتاحه، يهتف بها مع الهاتفين في الحلقة فتحمله خفيفًا وتهدهده.

يختلي بالشيخ. يخبره عن الكشف.

- قبل كده طلبت الرؤية ونلتها..... دلوقتي نلت الكشف لكن عينيك لسه بتفضح قلقك.

لسة بتدوَّر على المعجزة...... بتدوَّر على عصاية سيدنا موسي أو جن سيدنا سليمان المحبوسة أو إيد سيدنا عيسي الطاهرة تشفي وتحيي الموتي.....

البعض بيحرقه نور المعجزة.... الناموسة بتدوَّر على النور لغاية لما تطير في النار.... شفت قبل كده ناموسة بتسعى وراء نور القمر........

يكسر نظرته فور تيقنه من خطواتها المقتربة.

تجلس على المقعد الخشبي تحت الشجرة. نظراتها خاوية لا تكاد تستقر على شيء. عيناها في بحثها الحائر تصطدم بعينيه. تبعدهما سريعًا. يلمح فيهما نظرةً لافظة. يضغط على اللوحة أكثر بين ذراعه وجانب صدره. يقفز من مجلسه فوق السور. يسير بخطىً سريعة مبتعدة. لا يلبث أن غيَّر اتجاهه و عبر الطريق إلى الضفة الأخرى من الشارع.

يسير عائدًا نحوها. يفصله عنها عرض الطريق. يتأملها من مكانه. إلى جانب الشجرة تقف. تستند إليها. تهمس لها وتداعبها. تربت عليها. تقبلها، ثم تعود للهمس.

يعبر الطريق نحوها. يقف أمامها. تنتفض لمرآه.

يعرض عليها لوحته. يزيح عنها الغطاء.

أراد علامة فجاءته طائعة، ربما ابتدعها لاوعيه وبثها عبر الحلم.

في البناية يقف مع أناس خيالات. السماء تنتشر فيها الرعود والبروق. صواعق منقذفة تخلع القلوب. بعضها انطلق في رحلته كقذيفة تقصده. قلبه يلهج بالذكر. الصواعق ما كانت لتصيبه. سقطت على بنايات مجاورة. أثارت حرائق محدودة.

ينهض من نومه، على شفتيه ابتسامة اطمئنان. البرودة لم تلبث أن أصابته من جديد. لا تخففها حرارة الوِرد اليومي.

الشجرة الضخمة في الأصل نبتة صغيرة، جذرها ضارب بتفرعاته في رحمٍ طيني، وعاؤه حاوية فخارية.

جد الفتاة الأكبر حمله فوق كتفه مع باقي حاجياته.

في الحياة نشأ وحيدًا، مناله نبتة يحملها على كتفه و يطوف بها أنحاء الأرض.

من ماء نهرٍ مقدس سيروي ظمأه، سيترك خضاره مسافرًا، سيشعر ظمأً لمياهه فيعود ليرتوي. على ضفته سيحفر لنبتته. تحتضن الأرض جذورها و السماء فرعها.

الشجرة ستشهد زواجه، نمو نسله، فيض البركات.

في مكانٍ غير بعيد تلفع بالظلام. جلس لليالٍ يرقب اتصالها بالشجرة. من خلفها يتقدم نحوها. يفاجئ دموعها. وجهه يفشل في استيعاب مشاعره المتضاربة. أقسم عليها ألا تغادره كالمرة السابقة، أن تكفكف دمعها و تقبل لوحته.

الشجرة تتداعى. الشيخوخة دبت في أنحائها. ستقف عارية بعد أن تذبل عنها أوراقها. هيكلها الخشبي لن يلبث أن يستجيب لراح الزمن، ينحل شيئًا فشئًا، أو تجتثه يد تبحث عن جمالٍ أخضر.

بصوتٍ مرتعش، عينين حائرتين تنساب منهما الدموع:

- بموها البوار هيزحف........

بركة الأرض ما عدتش لنا........... موها طرد ليَّ من الأرض دي.

الشيخ يربت علي فخذه.

- مش لازم علشان تآمن تشهد معجزة.

- لكني محتاجها.

- مش هتستحمل نورها بجسمك الأرضي الضعيف.

- محتاج المعجزة...... أنا أضعف كثير من إني أتحرم منها.

في قلبه اشتعلت حرارة الذكر. يده تحفر تحت الشجرة. عيناه تلتقيان البدر، تسقطان على عيني الفتاة. يغيب في استقراء عمق نظرها. يبثها كل مكنونات صدره دفقة واحدة. ينتفض جسدها للمعنى. تبعد عينيها عنه وتشرد.

في الحفرة التي صنع يضع خلاص الحامل التي وضعت وليدها منذ ساعاتٍ قليلة. الخلاص معراج الحياة إلى كيانٍ يتشكل. بيديه يهيل التراب على الخلاص. يضع كفيه فوق بعضهما فوق الموضع المدفون فيه الخلاص. يغيب في تمتماته. نحو الفتاة يلتفت لم تكن هناك.

يجول ببصره باحثًا عنها. لا أثر لها.

على وجهها تبدى الإعياء و الأرق. اليأس ممزوج بصوها، حركاها، نظراها.

في الأرض دفن الخلاص لثلاث مرات في السابق. جميعها عندما كان القمر بدرًا تامًا. الحياة رفضت أن تتحرك عبر الخلاص نحو الشجرة.

تراقبه. يتسلق الشجرة. على أعلى غصونها يثبت عشًا لطيور. يضع فيه زغاليل صغيرة. على ساقها وفي تربتها أطلق النمل.

في عينيها نظر. همس لها:

- الحياة عدوى. انثريها وعلى طول هتزهر.

للشجرة غنى. سألها أن تشاركه الغناء، الذكر.

في وهن يجلس على السور الحديدي. في ملابسه يمسح يده من آثار التراب الذي أهاله على الخلاص الرابع.

يقفز من فوق السور. ينتزع إحدى فرش الرسم من فوق الأرض. بمؤخرة الفرشاة يضرب جذع الشجرة. الفرشاة تنقصف، تتهشم. خلفت على الجذع "خرابيش" بسيطة.

يجرح يده بالطرف الحاد الناتج عن تحطم الفرشاة. يمسح يده في "خرابيش" الشجرة. يصرخ:

- خليه يجري فيكِ .... عيشي.

يضربها..... يركلها..... يتوسل إليها...... يضمها إلى صدره..... يرقص و إياها في عزلة عن نظرات تساؤل العابرين و سخريتهم.

ينهار إلى جوار الشجرة، ساندًا ظهره إلى جذعها، ضامًا رجليه إلى صدره، دافنًا وجهه بين ركبتيه.

يترلق إلى غفوات قصيرة متقطعة.

في الفجر ينصب لوحته. يتأمل فيها النهر، فتاته، الشجرة.

ابتسامة ساخرة تبزغ على وجهه. الخطوط، الألوان مشاعر. اللوحة تسجيل لها. المشاعر موج بحر متغير صاخب.

غادرته للأبد....

يرتجف لمرآها. يقفز واقفًا منتصبًا حائرًا. خطواها ضيقة وئيدة مترددة.

تضم الشجرة إليها. تغيب و إياها في حوارٍ هامس. عبر غيمة الدمع تمد له يد مودعة. يشير إلى اللوحة التي تحمل صورها و النيل و الشجرة. هز رأسها موافقة.

بفرشاته يعابث الخطوط. يعيد مزج الألوان. الفرشاة تعانق كل التفاصيل. تصعد مع جذع الشجرة. عينا الفتاة تتابع رحلتها. الفرشاة تقبل الفروع. من الفروع قبط أهداب نحو الأرض. تصحبها الفرشاة. الأهداب تعانق الأرض. تصعد مع جذع شجرة جديد. الفتاة تتبع الفرشاة بإصبعها. تصعد مع الجذع الجديد، الشجرة الجديدة.

تلتفت نحو الشجرة. تنظر إليها، الجذع، الفروع، الأهداب.... الجذع الجديد، الفرع الجديد، وعنه الأهداب الجديدة، وشجرة أخرى جديدة.

تنظر إليه وتشير باسمة إلى الشجرة. نحو الجذع الجديد تجري، تعانقه. يتبعها.

تغني. يشاركها الغناء، الذكر.

من حكاوي المزيّن

لأنني مزين... بالأساس فنان... أهذب الرءوس وأحلي الوجوه.... كذلك طبيب، يفد إليّ البشر من كل الأقطار كي أفصد لهم الدماء فتضيء وجوههم وتسعى الفتوة في أجسادهم... كذلك خبير بجوهر الأشياء ولب النفوس... قبل ذلك كله وبعد ذلك كله فأنا كذلك متحدث لبق... عيبي الوحيد أنني لا أجيد الحديث عن نفسي، وأنني دائم التقليل من ذاتي... ميزتي الكبرى أنني لا أزبد أبدًا بالكلمات. عباراتي شديدة التكثيف، تسعى دومًا نحو هدفها وغايتها دون أن تحيد سمك شعرة واحدة. ذلك ربما لأن رؤيتي للعالم شديدة الاتساع، فكما يقولون، كلما اتسعت الرؤية ضاقت العبارة....

اعذروني إن كانت تلك الجملة المتفلسفة قد قفزت وسط حديثي... لكنها أعجبتني عندما نطق بها أحد زبائني ورأيتها تنطبق عليَّ كثيرًا فأضفتها إلى بعض حواراتي.. وهكذا، تجدونني دائم التطوير في ذاتي ولغتي... لا أستطرد أبدًا... لذا، ولأنني مزين، بالأساس فنان، أهذب الرءوس وأحلي الوجوه، فطبيعي جدًا أن تتشكل نطفي في الأرحام فنانين مجيدين.

لا أنكر أنني كذلك قد سألت الله أن يمنحني أبناءً فنانين واستجاب العليّ لندائي، سبحانه لا يخذل العابدين، الزاهدين، المسددين، المرابطين...

تخلقوا ثلاثة توائم في بطنٍ واحدة. فأنا شديد الفحولة.

الابن الأكبر الذي نزل في البداية صرخ صراخًا ملحنًا ملحميًا. عند فطامه، استطاعته المشي والتحكم في ذراعيه وأصابعه، اشتريت له عودًا

عمولة يناسب حجمه. بين أصابعه تتقطع الأوتار وقد واصل صراخه الملحن الملحمي.

اشتريت له ثانيًا وثالثًا ورابعًا وخامسًا وعاشرًا..........

الصغير بالتأكيد موهوب، سيما الموهبة على وجهه.

هي قوةّ زائدة يتعامل بها مع الأشياء. نصحوا لي أن أقص له شعره متى أردته فنانًا أصابعه حريرية... شمشون الجبار كانت قوته في شعر رأسه.

المزين لا يتحدث بل يهرع إلى العمل. عالم يجيد صنع الترياق اللبخة. مسحت فروة الرأس بالترياق فسقط الشعر عن آخره.

الصغير واهن القوى. فقد بصره. شلت رجلاه. فقد الإحساس بأحد ذراعيه. كلامه همس غير مسموع. صراخه فحيح مبحوح.

أصابعه تلعب كأرجل حشرة. تداعب الأوتار. الأنغام سماوية.

الشربات يدور بأمري على كل البيوت.

الابن الأوسط دسست في يده فرشاة. يمرغها في الألوان. يمررها في ترفع على اللوحة البيضاء. يضرب بها اللوحة كذلك أحيانًا. يضحك. خطوطه موحية. رسومه تشكيلية خارقة. عين الحسد لم تتركه ساعة. وهو رضيع، إنتاجه اليومي من اللوحات يفوق المائتين. تضاءل الرقم مع تقدمه في العمر. أصبح لوحة واحدة كل بضعة شهور.

الأصغر قاص، شاعر. أردته حكاء يدور بالربابة كأجدادي حاملي التراث، لكنه أبى إلا أن يكون مثقفًا بنظارة ضخمة. قاص بلا أسنان. لحيته نابتة في غير اعتناء وشعره غير مهذب. زيّنته عنوة لكني سئمت منه بعد ذلك.

الملحن عازف العود ينام نهارًا. يصحو مع بزوغ القمر. عيناه معلقتان بالضوء الفضي. يناجيه كحسناء لمسها محال. ترسل إليه نظرات فضية البريق، فتكسو الأرض بضوءٍ خلاب. يحاول القبض على فضته فتنضم أصابعه على الفراغ. قلبه نابض بين لذة الوصل ما بين عينيه ووجهها وبين ألم بعده عن دفء حضورها، نعومة ملمسها.

عوده سكران بها.

الأوسط أقرب أبنائي لي. شعره ناعم مسترسل. عيناه زرقاوان تعودان لجده الفرنسي الذي استوطن المنصورة بعد أن غادرها حملة "بونابارت".. هي الحقيقة دون مراء، فلساني لا ينطق إلا بالحق.. فمه دقيق أحمر. الدماء تكاد تنبجس من خديه.

عشق الطبيعة فاستلهمها في صوره. بعدما اخشن صوته ونبت الشعر في ذقنه، أدرك ما للإناث من دلال. لأن له هيئة ساحر توقظ شياطين الفتن فتبخ وساوسها في دماء العذارى، ينقدن إليه. يسحبهن إلى الخلوة.عندها يبحن له بأسرار أجسادهن، فرشاته تمنح الأسرار الخلود.

ثالثهم الشاعر، القاص، الأديب، لسانه ضمر لقلة تحركه بالحوار. خائب..... آه... مسكين أنا. إدارة كل شيء يخصه منوطةٌ بي. لم يرث عني إلا القلب الرهيف ، العينين ذواتى الدمع القريب، حسن الاستماع.

المشاعر والحكايات تختلط بخياله... الخيال الذي علمته كيف يركبه ويترك له القيادة.

اتخذ مجلسه حذاء النيل. الشاعر القاص الأديب ينهل من مياهه فيختلط عرق السر بالكلمات يودعها الأوراق.

زوجتي، تلك الكتلة الشحمية لا يعجبها حال الأبناء. امرأة نكدة لسانها سوط، عقلها مفقود، حمقاء، لا تحس مذاق الفنون. لولا قوة نطفي ما غلبت ماءها و لجاء الأولاد حمقًا، مشوهين، أغبياء. بلا عواطف تجاه الجمال. الحمد لله الذي أودع السر فيّ وقواه وقواني عليه.

أبنائي مصابيح الفنون، تفرعات نبعي الذي لا ينضب، لا يعجبون زوجتي! امرأة بلا حس. لا أملك إلا حمد الله، فرب رجل دخل الجنة في زوجته..

الحمقاء رأت الزواج ينقصهم. كلما أقبلت عليَّ بجسدها المترجرج فاتحتني في الأمر. لا أملك إلا أن أهز رأسي مؤيدًا، مسوفًا، سائلها التدبير.

حيث يجلس الثلاثة يصيغون عناصر الكون فنًا. يفد الناس يتأملون لحظات الميلاد. نشوة الفنون تتملكهم رجفات استمتاع. الفتيات يقصدهم وقد ارتسموا في مخيلاتهن فتيان الأحلام. يملكن مفاتيح السعادة والجنة، الصحة والشباب. يزففن أنفسهن عليهم في أحلام يقظتهن، على الأقل ستحتفظ أيديهن بحرارة مصافحتهم، آذانهن بعذب حديثهم، عيونهن ببديع خلقتهم..

بعد تمام الزيارة يتمنين لو لم تكن. حتى الفنان الرسام الأقرب لما أبدعته خيالاتهن ما أن ينال أسرارهن ويصورها على اللوحات حتى يطردهن. يعدن إلى قراهن ومدنهن يحدثن بعبارات مزخرفة مطولة عن ثلاثة رجال، فنونهم إذا ما قورنت بما عليهم من حسن وطلاوة لصارت كشمعة في حضور طاغٍ لشمس الظهيرة.

الحمقاء طالما حاكت المؤامرات للإيقاع بأبنائي بين براثن فتيات، زوجات.. لكن متى طويت الصحف عن شيءٍ كان...

إلى الزيارة خرجت فتاة تحتضن العود، تداعب الفرشاة، تقبل الكلمات قبل أن ترسلها أقاصيص وأشعارًا.

جلست إلى الملحن العواد. عيناه متشبثتان بالبدر. أصابعه في حركتها الحشرية تراقص الأوتار. الفتاة تغمض عينيها. الأنغام تحملها، تهدهدها، ترفعها وتحط بها، تدفعها إلى أن تمسك عودها، أن تحنو على أوتاره.

الأنغام تتداخل. الملحن العواد يعلق عينًا واحدة بالقمر. يرسل الأخرى في البحث عن منبع النغمات. عينه الباحثة ما أن وجدت غايتها حتى أرسلت في طلب الأخرى تعينها على التأمل.

أصابعه تكف عن مراقصة الأوتار. كيانه معلق بالنغمات تعزفها الفتاة، ترفعه وتهدهده.

الرسام أرادها في خلوته. فاجأته بفرشاتها. باح لها بكل ما ملك من أسرار. منحتها للوحة وأهدتها الخلود.

القاص الشاعر توقف عن الكتابة. أذناه منصتتان إلى إبداعاتها تلقيها. فتكسب الكلمات بأنفاسها حرارةً وحياة فوق ما حوت. حاول تحريك لسانه ببعض الكلمات لأجلها.

الزغاريد طيرتها ذات العقل المفقود عندما وجدت أبناءها وقد غادروا الخلوة وجاءوني سائلين الزواج. النواح والنحيب دلالات المعرفة. الثلاثة يسعون نحو فتاةٍ واحدة. النكدة شقت ثوبها. تمرغت في تراب الأرض. كادت أن تزهق منها الروح...

عرضوا عليها أن تكون إحساسًا وإلهامًا أزليًا في إبداع من تختاره زوجًا. هزت رأسها رافضةً الجميع.

ضحكات الفنانين تتسع لتشمل كل الكون. دموعهم طوفان مهلك. دمعهم المكتوم آلام كسكرات الموت.

الملحن المغني ابتاع الغث بالثمين. سألني أن أعيد له ما كان له من فتوةٍ وجمال. سيحطم ضلوعها متى كان بحضرتها وضمها إليه. ساعتها ستستكين له. ستمنحه فؤادها وتطارحه الغرام.

أعياني نصحه. متى عادت له الفتوة قطع الأوتار. حمّلته الوزر، أشهدته على نفسه. مسحت رأسه بلبخة ترياق. شعره يمتد كثيفًا ناعمًا مسترسلًا متموجًا. ينهض. جسده طويل شامخ، بارز العضلات، حاد العينين. في أنفاسه تشيع حرارة البأس.

بين أصابعه تقطعت الأوتار. أحضر عودًا ثانيًا، ثالثًا، رابعًا، عاشرًا، عشرينًا... جميعها تتقطع أوتارها.

عيناه حمراوان لغزارة دمعه المحبوس. عيناي تتحاشيان عينيه. أربت عليه مواسيًا. ينتفض مبتعدًا. أمسح على شعره.

الأفكار نعمة المولى يهديها من يشاء.

شددت بعض شعرات من شعر رأسه على عود. داعبها بأصابعه الفتية، فرقصت شاديةً بالأنغام دون أن تتقطع. غمرني بالقبلات، الدعوات، الألحان... سألني وأمه الدعاء له ثم خرج قاصدًا الفتاة التي سحرت له.

الرسام أراد جمالًا فوق جماله.

الشاعر القاص هذبت له هيئته. دربته على التعبير بالكلام وتليين اللسان. خرجا وراء أخيهما طالبين ذات الفتاة.

الفتاة اتخذت لها غرفة، جُدُرها عارية، جرداء إلا من عودها، فرشاتها، حكيها.

إليها يحج الناس. فرشاتها تبدع الرسوم، تمنحها الألوان. الرسوم تتهادى وتتراقص ، الألوان تتداخل وتمتزج على وقع نغمات عودها. جسدها يتثنى. يتمايل منتشيًا. ملامح وجهها حليات صوتية تثري اللحن. حكيها يعابث الرسوم، يستدفئ بالألحان، يقبل الآذان ويسكنها. في حضرتها تتلاحم الفنون تخترق الحاضرين كضوء أبيض امتزجت فيه كل الألوان. كل رجل وقعت عيناه عليها تنفسها عشقًا. بعضهم قارن نفسه بها عندما استشعر قلبه دناءته في ظل حضورها، أحجم عن التقدم إليها.

الشاعر القاص صدره عامرٌ بالإبداع. لسانه بات خلاقًا في تحركاته. تدريبي له مكن اللسان من منح الكلمات مذاقًا خاصًا. يلثغ أحيانًا، يسرع أحيانًا. يلحن أحيانًا. في حضرتها، جمد منه اللسان. لم يفاتحها في شيء. غادرها عيناه مثبتتان على مواضع خطوه. هام في الطرقات ثم عاد إلى خلوته حذاء النيل.

الملحن المغني استجمع كل ما أودعه من براعة. غلب عودها بألحانه وأجبره على الصمت. التمعت عيناها مستحسنة الأنغام. لكن ما من رسوم كي ترشف الألحان وترقص. لا حكي كي يفتح أبوابًا لعوالم أخرى تنساب عبره الموسيقى، تراقص شخوصه، تمنحهم جمالًا أسطوريًا ويهبونها مزيدًا من العذوبة والتجسيد.

الرسام المصور اقتحم خلوتها بلوحاته. رسومها تبهت ألوانها في حضرة رسومه. تتلاشى فيها الحدود ما بين عناصرها. تستحيل إلى لطخة لونية غير واضحة المعالم والأبعاد.

رسومه متخشبة الأوصال. لا تستطيع مجاراة النغمات، التحرك لها بالرقص. لا حكي يدفع الرسوم إلى امتطاء الحدث، التقدم والتأخر في الزمن.

الجميع خرج من عندها وقد سبحت مقلتاه في دمعةٍ ضخمة. ارتدى قلبه ثوب العزاء الأسود. ضحكته ممسوخة. أنفاسه مختنقة. أرادت رجلها يقبض على الروح الخالصة للفنون. يملك العبث بها ومعها. تبغي رجلًا يقتحمها، يبهرها، ترتجف لمجرد التقاء عينيهما.

ابتعت أنعم الأثواب وأجملها. حفّزت كل مهاراتي. داريت الشيب، التجاعيد. منحتُني بهاء نبي الله يوسف. زوجتي الحمقاء انتفضت لرؤيتي في البيت. لم تتعرفني. كادت تصرخ سائلةً النجدة من المقتحم. عرفتها بنفسي. تركتها ذاهلة واندفعت خارجًا. لن تلبث أن تقرفص وسط البيت، تولول ناحبةً أبناءها التعساء، زوجها فاقد العقل والوقار.

حول الفتاة مبدعة الفنون حلقات وحلقات من المنتشين. أرواحهم في تماسٍ طفيف مع الأجساد. تماس يكفل بقاء الأجساد على قيد الحياة، لكنها اندفعت طوافة في السماوات المفتوحة.

أتخطى رقاب الذاهلين. في مواجهتها تمامًا أقف. لا تستشعرني.... أكح ... أتنحنح... أدفع الهواء إلى صدري ومنه.... أهمس ... أتغرغر... أكح ... أتنحنح... وأبدأ في الحكي... كلماتي عالية، رنانة، موحية. تصارع أنغامها في آذان الحاضرين... أعين الجميع تتعلق بحركة شفتيَّ، لساني، وحركة جسدي التعبيرية. عودها ينقاد لحكيي. يشدو بألحانٍ تساعد الكلمات على الرقص والتألق. فرشاتها تهتز قليلًا بين تشويق حكيي، طلاقة لساني، جمال صوتي وبين إرادة يدها. يغلب حكيي إرادتها. الفرشاة تندفع تصور حكيي لوحات لا مثيل لها.

أسكرهم جميعًا بخمر الجمال المعتق، خلاصة روح الفنون المركزة. قبل أن تفيق من نشوة السكر انسللت من بينهم على أطراف أصابعي مسرعًا بالمغادرة، متلفحًا بردائي، محتميًا بالجُدُر.

شمس الصباح وصياح الديكة تميمة كسر قيود السحر. أفاقت لتجد لسانها يردد مقاطع شديدة الإنارة من حكيي. في أذنيها وقع العبارات ممتزجًا بألحان دافئة. بين عينيها صورتي، من حول صورتي تتراقص الرسوم والألوان.

تفتش عني. مريدوها يعاونونها وقد وجودوا في عينيها بريقًا لم يعهدوه. كادوا يندفعون نحو الأبنية سائلين. يهددون الأرض بالحفر والتحريق إن لم تبح بالجزء الذي يقلني منها.

البحث طال بلا جدوى. البريق في عينيها يزداد بينما ينحل جسدها وكأن البريق يمتصها ويعتصرها.

من بين المريدين العاشقين خرج رجل أقسم أن ينال ممن فعل بها فعلته تلك. الرجل ذو بأسٍ وسلطان. كلمته مطاعة. سيجالس أولي الأمر، سيفتح أبواب خزانته على مصراعيها.

كان قد سمع بالفتاة، حضر ليرى سحرها الذي تمزج. رآها فسكر بها. لم ينقطع عن رؤياها، السكر بها. يومًا امتلك شجاعة الاقتراب منها. إما اختراقٌ أو احتراق. نقع بدنه في حمامٍ من عطر. ارتدى حريرًا موشى بالذهب. نفخ صدره، رسم قسماته وضبط نظراته. أحاط نفسه بموكبٍ ملكي زينه بالورود، والرياحين، الشموع.

في حضرتها نسي كل ما كان قد أعد. ارتجل. سمعته حتى النهاية. ردته إلى حلقتها يجلس وسط المريدين. أجابته بلغة الفنون، الألحان، الرسوم،

الحكايات والطُرف. رضى بمجلسه المميز بين المريدين. قلبه النابض رغبة سيكتفي بتأملها من بعيد. يعشقها نجمةً سماوية تمتلكها عيناه دون أن تستطيع يداه القبض عليها.

الفتاة استحالت إلى عينب ، جاحظتين. نظرات لامعة، بريق حب، رغبة، انبهار، خضوع، تمنٍّ، أمل، ألم، يأس، فرح، موات.

بالتأكيد هم أبناء المزين الثلاثة، جلسوا إلى بعضهم البعض، مزجوا الفنون، ابتدعوا ذلك الكيان الساحر، أتى الفتاة سلبها الروح ثم هرب.

غضب المريد العاشق حمل الفنانين الثلاثة إلى ظلمات الغرف الرطبة للسجون. النكدة أمهم ناحت حتى ذهب منها الصوت، انهمرت دموعها، فتغمم بصرها بسحابات بيضاء.

حاولت التعلق بالجند، التوسل إليهم. دفعوني في عنف، صموا آذانهم عن السماع لي.

أبنائي... فلذة كبدي... نبع الحياة في صحراء عمري...

المريد العاشق رثي لحالي، جفف دموعي. عندما صدقته فيما فعلت كذّبني، سخر من شيبتي. عيرني بحظي القليل من الجمال وبحظي الوافر من طول اللسان.

عندما استحضرت كل مواهبي، ملكت نفسي ناصية الجمال، شع وجهي ببهاء نبي الله يوسف، أعملت لساني في الحكايات، صاح إنما هو خداعٌ بيّن، سحرٌ لا يقدر عليه إلا شيطانٌ مثلي، ذريته شياطين وأبالسة.

أمر بحملي مصلوبًا في الطرقات. أتلقى السباب، البصاق، الحجارة.

أبنائي الثلاثة اقتادوا كُلًّا منهم إلى زنزانةٍ منفصلة تحت الأرض. تحاصرهم الظلمة. الضوء الوحيد الذي يرونه شعاعٌ ينبعث من شراعةٍ صغيرة في أسفل الباب عندما تُفتح. الشراعة لا تفتح إلا كي تمرر عبرها كسرات الخبز والماء. الضوء مبعثه مصباحٌ يحمله الحارس كي ينير له السرداب الحالك.

في الزنازين يختنقون بخبثهم الذي يخرجون في دلو لا يجمع كي يغسل إلا مرةً كل أسبوع. في البدء حاربوا الظلام، الملل، الآلام واليأس بإغماض عيونهم واستدعاء النوم. غلبهم الظلام، الملل، الآلام واليأس، وكذا غلب النوم. عيونهم مفتوحة عمياء. الأفكار أعاصير. يحركون أطرافهم المضطربة القلقة برتابة كعقرب ساعة يشق طريقه الدائري المغلق على نفسه في هدوء، صبر ورتابة.

منذ سكنوا هذى القبور يتسمعون إلى طرقاتٍ على الجدار الصخري لزنازينهم. نداءات جيرانهم في زنازين مجاورة.

عندما تقاذفتهم الأفكار، جرفهم طوفان اليأس، ملهم الصمت. ملأهم الصرخات زاد حول أعناقهم الاختناق، اندفعوا نحو الجُدُر الصخرية لزنازينهم، طرقوها، هتفوا منادين جيرانهم، متوسلين إليهم أن يجيبوهم. الأخبار والحكايات همسٌ يعبر الجدر، ينتقل من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين، من الزنازن الشرقية إلى الغربية، من الجنوبية إلى الشمالية، من الشمالية إلى الغربية ومن الشرقية إلى الشمالية، من الزنازن الأعلى إلى الأسفل ومن الأعلى إلى الأكثر سفالًا، ومن الأسفل إلى الأعلى ومن الأكثر علوًا إلى ....

الشاعر القاص مرَّن منه اللسان. يجلس إلى جوار الجدار. يبدع الحكايات. يعتمد على ذاكرة السجناء. عليهم حفظ واستظهار كل ما

يحبك. يسليهم ويسلونه. الحكايات تبلغ الملحن العازف. يمسك ببعض شعرات رأسه. يلف نهاياها على سبابة يسراه. الشعر أوتارٌ مشدودة. يميل على الجدار. بإبهام وسبابة يمناه المنضمين يداعب الأوتار. بباقي أصابع يسراه يثبت الأوتار قرب نهايتها ضاغطها إلى ركبته. الألحان تنداح عذبة رنانة. صوته يدندن اللحن. يلحن كلمات أخيه ويغنيها.

الرسام المصور جعل من خياله فرشاة. ذاكرته آلاف اللوحات. كل ما أبدع ويبدع يستطيع استحضاره ليمثل بين عينيه بكل دقائقه، بالتأثيرات التي تعطيها اختلاف المواد المستعملة في الرسم، اختلاف درجات الإضاءة المنطرحة على اللوحات وأماكن انبعاثها، اللوحة تستحيل أوصافًا في غاية الدقة تعبر الجدران، الزنازين، تتشكل في مخيلة الجميع.

الرسوم ترقص بصحبة كلمات الحكي تشدو بهما الألحان.

الحراس ألصقوا آذانهم بالأبواب المغلقة. فتحوا الشراعات لأعينهم والضياء. مزيج الفنون نشوات تجتاحهم، ترجفهم.

مرتديًا ثوب المطبب العالم بالأدواء والدواء أدخل على الفتاة خلوتها. مستلقية على فراشها فاقدة الوعي. أعد كاسات الهواء لأفصد لها الدماء. أترك لأنفاسها مهمة حمل العطر النفاذ للعشب الذي وضعته أمام أنفها.

جفناها يكشفان عن عينين ذاهلتين لامعتين. بأدواتي وفني أنحت ملامحي، أشكلها على هيئة نبي الله يوسف. أدخل بوجهي مجال نظراتها الذاهلة. مقلتاها تتعلقان بي. تنفرج شفتاها عن ابتسامةٍ مريضة حلوة كالعسل. بريق عينيها يستحيل إشعاعًا مضيئًا ثاقبًا.

الحكايات والطُّرف تنساب من فمي. تحلق فيما حولنا. الكون أنغام وتصاوير تصحبنا. تحتفي بالحكي ومعه ... بنا ومعنا.

وسط الحكايات، الأنغام، الأغاني، التصاوير، أسرب لها الدواء، العشب، كاسات الهواء، الطعام. عظامها تكتسي لحمًا. وردة تنمو وتكبر ثم تتفتح. باتت تبادل حكيي بحكي. أنغامها ورسومها تمتزج بأنغامي ورسومي. ضحكاها تجلجل.

لزامٌ عليَّ أن أحادثها في شأن أبنائي الثلاثة. عندما أتيقن من رؤيتهم لضوء النهار أجذبها إلى عمق دوامات روح الفنون. مع لحظات الشبق، الامتزاج بالعوالم الأجمل، سأخلع عني بدع فني تدريجيًا. أعيد لقسماتي الشيب، خطوطها وتجاعيدها المميزة. أخاطبها بلغة الفنون ونشواته، فتخف عنها صدمة فعلتي. منتشية ذاهلة سترغب في المزيد من الحكايا والطرف، الألحان والتصاوير.

تقترب مني. روحها تداعبني تتقافز من حولي تدفعني إلى التقافز، المداعبة، الجنون. عبير جسدها يخترق أنفي. تضمني نظراتها قبل ذراعيها. رضابها خمرٌ يبلل شفتيَّ، يتذوقه لساني مع قبلاتها. تكفي قطرات قليلة منه كي تسكر وعيي وخطواتي. أترنح في جنة أنوثتها ودلالها.

المريد العاشق سحق قلبه. ابتلع غصة الألم. جالس أولي الأمر، فتح أبواب خزائنه. أبنائي ألحانٌ وحكايات وتصاوير عادت لتدب حياة فوق الأرض.

الفتاة نبع فائر سيعوض جفاف صحاري العمر. فتنة، لا يجتنبها إلا مجنون. لأجل عيونها تتبدل كل الخطط....

الحكايات والطرف، الألحان والتصاوير ستزفنا متحابين عشق كل منهما أنفاس الآخر.

اقتحموا علينا الزفاف النكدة والمصور الرسام والملحن والشاعر القاص. أوصوا النكدة ألا تتكلم، لا تتحرك، أن تكبح غضبتها حتى تكون

إشارتهم لها. كادوا يحملونها مكممة الفم، مغلقة العينين، مسدودة الأذنين. لكنها نالت منهم بلسانها ويديها. استعدت عليهم رب السماوات. رضخت لتصميمهم، وعدتهم وأقسمت لهم.

الحكايات والطرف أتباد ما والفتاة، الأنغام، التصاوير تحملنا سعداء إلى مسكننا الذي هيأنا. لساني يجمد وقد جف حلقي مع اختراقهم للعُرس. أفكر في الهرب، الفكاك، لكنني أتصخر مكاني.

محبوبتي تتأملني بعينين متسائلتين. تحاول مساعدتي، علاجي بالمزيد من الحكايا، الألحان والرسوم.

أبنائي باتوا يقبضون على روح الفنون. يشكلونها حكايا تستطيع الرقص على كل المقامات اللحنية تصحبها الرسوم والألوان.

الفتاة تفقد إحساسها بحضور الوعي. تتخفف من قيودٍ يفرضها الإحساس بالجسد. تحلق في فضاءات لم تكن تدرك بوجودها من الأصل. الشبق فيض يغمرها. يقتربون مني، يفضحون شيبتي، تجاعيدي، خلقتي. كلما انكشف شيء زادوا من رجفات الشبق إليها.

الفتاة نشوانة بالكشف. نسيتني في خضمه. ابتسامتها ملء فمها. تشاركهم القبض على روح الفنون وقد استشعرت السر وملأها. لسانها يغرد بحكايا وطرف تتبادلها معهم. الألحان تدغدغها والرسوم تعانقها.

النكدة تخلع عنها ثوب السكون. تهرع نحوي. أتحامل على ساقَيَّ العجوزتين أجهدهما بالعدو. النكدة من خلفي. جسدها يترجرج. فمها عامرٌ بسباب لحق أجدادي حتى الجد العاشر، بالدعوات على المسكين ابن فلانة بنت فلانة بنت علانة بنت ..... تذكر نسبي حتى الجدة العشرين

لتتثبت من نصيبي في الدعاء. ذراعاها المنتفختان الثقيلتان هراوات تطوحها. تسعى لسقوطها على أم رأسي أو ما تيسر لها من جسدي.

ضحكات الفتاة، الرسام، الحكاء، الملحن تمتزج بأشعارهم، أغانيهم، أنغامهم، تصاويرهم... تلاحقني..

في مكان حذاء النيل تحيطه البساتين، يعبره رقيق النسمات، أقاموا الخلوة. يعانقون روح الفنون ويتشاركون الإبداع.

إليهم يفد الحجيج، وحولهم ينتظم المريدون.

الحكايا، الرسوم، الأقاصيص، الأشعار، التصاوير، الألحان، الأنغام، المقامات شبقٌ يرجف الجميع.

أما أنا فلي الله...ما كاد الحظ يبتسم حتى غله حقد الحاسدين فعبس. ما أشقاني!!... ما أن أنظر إلى النكدة حتى يصيبني التطلع إلى وجهها بالغثيان، إذا ضمتني إليها ما قدر صدري على الصعود والهبوط، أشقاني جهد الحصول على أنفاس الحياة... سبحانه من جعل الكذب على أمثالها لحفظ الحياة على أمثالي حلالًا...

لكنني أحمد الكريم فما قُدِّر لإنسان أن يحوز كل شيء... تكفيني ملاحتي، براعتي في صوغ الجملة و الإتيان بالمعني، فحولتي، فتوتي، علمي و فقهي، شجاعتي و صدقي، خلقي.... فأنا المزين لا ألغو، لا أتتبع عرضًا ولا أخبر سرًا... فنان، عالم و طبيب.... يكفيني أن أكون حكيمًا لأعلم أن ما كتب في علم الغيب نافذ رغم حذق أمثالي من الحاذقين.

الفهـــــرس